الدكتور يوسف القرضاوي

عقائد الإسلام

(١)

وجود الله

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون : ٣٩١٧٤٧٠

عقائد الإسلام
(١)

وجود الله

الدكتور يوسف القرضاوي

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون : ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثالثة

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

تم صف الأحرف
بمكتب اليُسر لخدمات الطباعة
القاهرة - ت : ٢٤٤٩٧٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وعلى خاتمهم المجتبى .

وبعد .. فهذا بحث في أولي القضايا الكبرى في العقائد والأديان والفلسفات :

قضية وجود الله ، منشىء الكون ، وواهب الحياة ، وخالق الإنسان .

لقد كانت هذه القضية قليلة الأهمية عند علمائنا القدامي الذين اشتغلوا بعلم التوحيد والكلام ، حيث لم تكن تشغلهم قضية وجود الله كما شغلتهم قضية صفاته تعالى . فاشتغلوا بالصفات الإلهية : هل هي عين الذات الإلهية أم غيرها ، أم هى لا عين ولا غير ؟!! والصفات الخبرية التي يُوهم ظاهرها مشابهة الخلق : هل تؤوّل أم تبقي كما هي بلا تشبيه ولا تخييل ؟!.. معركة حامية الوطيس بين أهل السنة

والمعتزلة من جانب ، وبين أهل السنة أنفسهم من سلفيين وأشعرية من جانب آخر .

أما وجود اللّه فكان عند الأطراف كلها من الضروريات التي تقتضيها الفطرة ، وإن لم تخل كتب الكلام والفلسفة من إقامة الدليل على وجوده سبحانه باعتباره محدث الكون أو واجب الوجود .

أما المتكلمون ، فعوّلوا على دليل الحدوث ، على ما في عرضه من جفاف ، وما في مضمونه من قصور . يقول هذا الدليل : العالم متغير ، وكل متغير حادث ، وكل حادث ، لا بد له من محدث ، وهو اللّه تعالى .

وفي هذا الدليل ثغرات ذكرها المتكلمون أنفسهم ، وبيّنها الفلاسفة وغيرهم .

وأما المتفلسفة فعوّلوا على دليل الإمكان : الذى أشرنا إليه في صلب البحث .

وقليلون من عوّلوا على الأدلة الكونية التى بثّها اللّه في الأنفس والآفاق ، مثل الجاحظ ، وابن القيم .

ومنذ أكثر من قرنين تعرّض الدين فى أوروبا لمحنة شديدة ، بسبب موقف الكنيسة هناك من العلم والعلماء ، والفكر والمفكرين ، مما جعل كثيراً من الناس يكفرون بالدين وباللّه ، وإن كانوا فى الواقع لم يكفروا إلا بدين الكنيسة والهها ، ولو أُتيح لهم أن يعرفوا الإله الحق ، ودينه الحق ، لعادوا إلى حظيرة المؤمنين .

ومهما يكن من تعليل إلحادهم في ذلك الحين فقد ألحدوا ، وتطاير شرر الإلحاد من أوروبا إلى غيرها ، وقامت على مبدأ الإلحاد دول كبرى تنص دساتيرها على أن : لا إله ، والحياة مادة . كما فى دستور روسيا السوفييتية أم الاشتراكية ومن دار في فلكها من الدول .

وقد صار العالَم الآن قرية كبرى - كما قال بعض الفلاسفة ـ فسرت عدوى الإنكار فيه ، أشد وأسرع من عدوى الأمراض والأوبئة ، فقد اتخذت الدول من إجراءات الوقاية والحَجر الصحِّى ما يحول دون انتشار الأوبئة الفتّاكة ولم تتخذ معظمها مثل ذلك في الحيلولة دون انتشار

الأفكار الضارة ، والعقائد المخرِّبة ، وهي أشد فتكاً ، وأعمق خطراً .

فلا غرو أن ابْتُلِيَ عالمنا العربى والإسلامى بفئة من الملاحدة ، تعلّموا فى أوروبا وأمريكا وشربوا الثقافة الغربية المسمومة ، وقلدّهم غيرهم ممن تعلّموا في ديارنا ، فى مدارس ومناهج ، صنعها المستعمرون ووجهوها كما شاءوا . وزاد الطين بلّة أن أصبح للشيوعية نفوذ في ديار الإسلام لظروف وأسباب داخلية وخارجية ، وفُتِن بعض الشباب بالاشتراكية ، ولعبت بعقولهم الماركسية . بتزيين أبالستها الذين صار لهم في أجهزة التوجيه والإعلام مكان أى مكان ، وكان من نتيجة ذلك أن وجدنا مَنْ يكتب فى الصحف وينشر فى الكتب إنكار اللّه جهرة علانية في قلب بلاد العرب والإسلام .

ووجدنا هذه الأفكار تُحدث بلبلة واضطراباً في أنفس كثير من الشباب الطيبين الذين ليسوا بملحدين ، ولا يساريين ولا يمينيين . وكثيراً ما جاءتني أسئلة فى الإذاعة [١] وفي أعقاب المحاضرات والندوات يسأل أصحابها : ما الدليل

---

(١) كتبت هذه المقدمة قبل أن ينشأ (التلفاز) في قطر .

على وجود اللّه تعالي ؟ وهم لا يشكُّون فى وجوده سبحانه ولكنهم يريدون أن يُقنعوا الشاكِّين ويُفحموا المُشكِّكين .

ولهذا قلت لإخواننا العلماء فى قَطَر والمملكة العربية السعودية حين سمعت بعضهم يجادل في قضية الصفات بين السَلَف والخَلَف،وما فيها من جدل وكلام طويل الذيول : إن المعركة اليوم ليست مع الأشاعرة ولا الماتريدية ولا المعتزلة ولا الجهمية . إن معركتنا الكبري مع الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله ولا نبوّة ولا كتاب .

ليست معركتنا مع الذين يقولون عن اللّه تعالى : ليس له مكان ، بل مع الذين يقولون : ليس له وجود ، وعلينا أن نخلقه ، كما قال أحدهم !!

ليست معركتنا مع الذين يُؤوِّلون صفات اللّهَ تعالى ، بل مع الذين يجحدون اللّه بالكلية .

وأى تحويل للمعركة عن هذا الخط ، يعتبر توهيناً للصف ، وفراراً من الزحف ، وإعانة للعدو .

ومن الإنصاف أن أقول : أني وجدت تجاوباً رائعاً من علماء قَطَر والمملكة العربية السعودية نحو هذا الاتجاه ، فيما عدا القليل منهم .

ومن هنا وجدت : أن إقامة الأدلة علي وجود الخالق جلَّ جلاله ، جزء من معركتنا مع الإلحاد ، لتسليح الشباب المؤمن ، وتثبيت الشباب القلق،وإلزام الفئة المعاندة .

إن إثبات العقائد الأُخرى من رسالة محمد ﷺ والإيمان بالآخرة ، وإثبات ما جاء به الرسول من الهدى ودين الحق ، لا يتم ولا يستقيم إلا إذا قام الأساس الأول للعقيدة،وهو الإيمان بوجود اللّه . وإلا فلا يُجدى الكلام عن محاسن الإسلام ومزايا الشريعة الإسلامية ، مع من لا يؤمن بالأديان كلها ، لأنه يشك في وجود اللّه ذاته أو يُكابر فيه .

ومن أساتذتنا كالدكتور عبد الحليم محمود الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة [١] - مَنْ يرى أن الإيمان

(١) في كتابه « الإسلام والعقل » وفي رسالته عن«الإيمان».

بوجود اللّه أمر فطري ، لا يحتاج إلى إقامة أدلة نظرية عليه . وهذا صحيح . لكن إذا نفقت سوق الشبهات ، وانتشرت سموم الشكوك وجب أن نقاومها بسلاحها نفسه مخاطبين العقل ، والفطرة معاً . وهدفنا - كما قلت - أن نُسَلِّحَ الفئة المؤمنة الواعية لترد علي الجاحدين ، وتنقذ المتحيرين ، وتقتلع بذور الشك من قلوب الشاكّين .

ومن الخطأ أن يُحسب القرآن كتاباً يُنشىء العقائد بالأخبار فحسب ، كما هو شائع من الاستدلال بآيات القرآن علي أنها أدلة نقلية ، في مقابل الأدلة العقلية .

كلا .. إن القرآنلايكتفي بالخبر عن الحقائق الكبرى ، بل يتبعه بإقامة البراهين الساطعة عليها ، ودفع الشبهات عنها ، بحيث يُقنع العقل ويرضي الفطرة .

هكذا وجدنا القرآن الكريم في قضية وجود اللّه . وفي قضية التوحيد ، وفي قضية الوحي والرسالة ، وفي قضية البعث والجزاء ..

وقد استعنت بما كتبه القدماء والمحدثون في هذا الموضوع ، محاولاً تجليته ، وضرب الأمثلة المتنوعة ، لزيادة الإيضاح والإقناع ، ولعل الجديد فيه هو ترتيب الموضوع وتقسيمه وتنويع الأدلة عليه ، مع ربط ذلك كله بالقرآن الكريم . فهو قد أرشد إلى أصول هذه الأدلة وأنواعها . وأشار فى آياته البيِّنات إلى أُمهاتها .

وقد كتبت هذا البحث في بادىء الأمر لطلاُب المرحلة الثانوية من المعهد الديني في قَطَر . باعتباره جزءاً من المقرَّر عليهم في دراسة العقيدة أو علم التوحيد .

وهذا - فيما أعلم - اتجاه جديد في تدريس العقيدة في المعاهد الدينية والكليات الشرعية أو الإسلامية .

فالسائد في تلك المعاهد هو دراسة العقائد علي الطريقة التي كُتبت بها في العصور الماضية ، والاهتمام بنفس القضايا التي اهتم بها القدماء والمتأخرون : مع ما جَدَّ في

عصرنا من قضايا فكرية جديدة . وما جَدَّ من معارف كونية وإنسانية لا بد من استخدامها في ميدان العقيدة .

ثم رأيت من الخير أن أنشر هذا البحث بعد أن زدت عليه ، وأضفت إليه ، ونقَّحت فيه ، راجياً أن ينفع اللّه به طلاَّب الحقيقة عامة ، وطلاَّب الدراسات الإسلامية خاصة .

وما توفيقى إلا باللّه . .

د . يوسف القرضاوي

* * *

وجود الله
فوق الجدل والشبهات

إن وجود الله هو أول الحقائق وكبراها وأظهرها ، دلَّت على ذلك الفطر والعقول والبصائر ، وهدى إليه العلم والوحى والتاريخ .

والذين جادلوا في وجود الله قلة مغمورة ، فى كل عصر ، ومعظمهم ممن جرفتهم الشهوات ، وغلبتهم الغرائز الدنيا ، فبرَّروا هبوطهم وانحرافهم بالإلحاد ، وإنكار وجود الخالق الأعلي ، حتى لا يحاسبهم أحد ، ولا يحاسبوا أنفسهم علي السقوط والانغماس في الملذَّات البهيمية .

ولا غرو أن قال بعض المفكرين في إلحاد هذا النوع من الناس : إنه إلحاد بطن وفرج لا إلحاد عقل وفكر . يعنى أنهم يَنْحَلُّون أولاً ثم يُلحِدُون ثانياً ، وبتعبير علماء النفس : إن الإلحاد والإنكار عندهم ضرب من الحيل اللاشعورية لجأوا

إليه لتبرير انحرافهم والدفاع عن سقوطهم وسوء سلوكهم ، وتغطية ضعفهم أمام الشهوات والملذات .

ومن هنا لم يكن هَمّ الأنبياء منصرفاً إلى إثبات وجود الله - سبحانه - فقد كان هذا أمراً مفروغاً منه ، ومسلماً به لدى أقوامهم . إنما كان أكبر همهم تنقية الإيمان بالله مما شابه من أدران الوثنية ونجاسة الشرك الذي أفسد عقول البشر ، وجعلهم عبيداً لبعض الأشياء التى سخرها الله لهم ، وجعلهم سادة عليها . كان أكبر همهم الدعوة إلى التوحيد ، كان أول ما يدعو إليه الرسول ، وأبرزما ينادى به قومه : أن ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [1] ، ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [2] .

ولما بُعِثَ محمد ﷺ وجد قومه - كما وجد سائر الأمم - يعبدون مع الله آلهة أخري من مخلوقات الأرض وكواكب السماء ، ولكنهم لم يجحدوا وجود الله ، ولا جادلوا فيه ،

---

(١) الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ .. وغيرها كثير .

(٢) النحل : ٣٦

وهذا ما قرره القرآن بأجلى بيان : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [١] . وإذا كان هناك فئة قليلة من الدهريين الملحدين ، فإن القرآن لم يقم لهم وزناً . ولم يعتد بوجودهم ، لأنهم يتحدّون الفطرة والبداهة والحس . ووجّه خطابه - أكثر ما وجّهه - إلى الذين أشركوا ، ولهذا كان أول ركن في رسال الإسلام ﴿ وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ [٢] .

وكانت دعوة الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض وأباطرتها تتمثل في هذه الآية : ﴿ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [٣] .

* * *

• سبب الإلحاد في أوروبا :

ولكن ظروفاً خاصة مرت بأوروبا المسيحية في القرن

---

(١) الزمر : ٣٨ (٢) النساء : ٣٦

(٣) آل عمران : ٦٤

التاسع عشر الميلادى وما قبله ، جعلت كثيراً من المتنورين من أهلها يكفرون بالدين ، ويجحدون الله أو يشكُّون فيه ، والواقع أنهم لم يكفروا بالدين الحق ولا بالإله الحق ، وإنما كفروا بإله الكنيسة الغربية ودينها .

ولقد وقفت الكنيسة في أوروبا تؤيد الظلام وتحارب النور ، تؤيد الجهل وتحارب العلم ، تؤيد الإقطاع وتحارب العدل ، تؤيد الملوك وتحارب الشعوب ، تؤيد الخرافة وتحارب الفكر .. إلخ . فلما اندلعت الثورات الداعية إلى الحرية والمساواة كان نداء رجالها « اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس » .

لقد حكمت الكنيسة يومئذ بإعدام الألوف من العلماء والمفكرين ، وتخريق أجسادهم بالمسامير ، بل حاكمت جثثهم بعد موتهم .

فعلت الكنيسة ذلك كله باسم الدين ، وباسم الله ، وباسم المسيح . فلما رأى ذلك أحرار الفكر ، وعشّاق العلم ، كفروا بإله تمثله هذه الكنيسة ورجالها . وآمنوا بما عندهم من العلم .

وأعظم ما زهّد الناس في الدين فساد دعاته ، وانحراف منتحليه ، وخصوصاً في دين يحجر علي الناس أن يعرفوا اللّه ، أو يتصلوا به ، أو يطرقوا بابه إلا عن طريق طبقة كهنوتية خاصة تسمي « رجال الدين » ، ومن هنا قامت في أوروبا مذاهب تقوم فلسفتها على الحس والمادة ، وتنكر ما وراء ذلك من « الغيبيات » فلا إله ولا وحى ولا ملائكة ولا آخرة ولا جنة ولا نار .

وبلغ الجحود والإلحاد قمته في المذهب « الماركسي » الذي تبنّي ما زعمه « نيتشة » : أن « الدين أفيون الشعوب » وما زعمه غيره من أنه « ليس إلا حيلة اخترعها الأغنياء والأقوياء ، ليلهوا بها الضعفاء والفقراء ، ويمنوهم بنعيم الآخرة ، لينفردوا هم بنعيم الدنيا » . وقال كارل ماركس في ذلك : « إن اللّه لم يخلق الإنسان . بل الصواب أن الإنسان هو الذي خلق اللّه » .

* * *

• رذاذ من الإلحاد يصيب الشرق :

ولما أخذ الغزو الفكرى يزحف على ديار العرب والإسلام ، انتقل رذاذ من موجة الإلحاد الغربي إلى العالم الإسلامى ، فوُجِدَ من أبناء المسلمين [١] من يرتاب في وجود اللّه أو يجادل فيه ، بعضهم من أولئك الذين تخرّجوا في جامعات الغرب ، وعلي أساتذته ، وبعضهم من الذين تأثروا - أخيراً - بالدعاية الماركسية ، والشيوعية ، وكِلا الفريقين طبّق على الدين هنا ما ذكره الغربيون عن الدين هناك ، مع الفرق الواضح بين الإسلام في الشرق والمسيحية في الغرب .

هؤلاء يزعمون أنهم مجدِّدون وهم في الواقع مقلّدون ، يفكرون برؤوس الغربيين ، ويردِّدون أفكار فريق منهم عفى عليه الزمن ، ومضي عليه قرن أو قرنان ، ومع هذا يدّعون أنهم علميّون وتقدميون ، وهم كما وصفهم القرآن : ﴿ وَمِنَ

(١) بدأ الإلحاد أولا بين النصارى مثل : شبلي شميل في لبنان ، وسلامه موسى في مصر ، ثم انتقلت العدوى إلى المسلمين .

النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (١) .

* * *

• دلائل وجود الله :

ومن باب التنزل مع هؤلاء المرتابين والمجادلين ، اضطر الذين يكتبون في عقيدة الإسلام أن يبدأوا بإقامة البراهين على وجود الله سبحانه ، ليرتكز الإيمان على أساس عقلي متين ، مع أن الأمر أبسط وأوضح من أن يحتاج إلى برهان أو كما قال الشاعر :

وليس يصح في الأذهان شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل

فما البراهين والأدلة التي يقدمها المؤمنون لإثبات وجود الله - عز وجل - لدى الشاكين والملحدين ؟

* * *

---

(١) الحج : ٨

دلالة الفطرة

إن أول دليل على وجود اللّه - جل جلاله - ليس شيئاً خارجاً عن كيان الإنسان . إنه الفطرة التى فَطَرَ اللّه الناس عليها . إنه ذلك الشعور الطبيعي البصير الغامر ، بأن فوق الكائنات المحدودة المتناهية ، كائناً غير محدود ولا متناه ، يُهيمن على كل شىء ، ويُدبِّر كل أمر ، يُرْجَي ويُخْشَى ، ويُعَظَّم ويُقصَد . شعور ينبع من أعماق الإنسان ، ويُستمَد من كيانه كله ، لا من عقله وحده ، ولا من وجدانه بمفرده ، شعور يجده الإنسان في نفسه بغير تعلم ولا تلقين ولا اكتساب .

يُعبِّر الفيلسوف الشهير « ديكارت » عن هذا الشعور الفطري فيقول : « إنى مع شعورى بنقص فى ذاتى ، أحس في الوقت نفسه بوجود ذات كاملة . وأرانى مضطراً إلى اعتقادى بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلِّية بجميع صفات الكمال ، وهى اللّه » .

وكلما كان الإنسان أسلم فطرة وأزكي نفساً ، رق حجابه وتفتحت عين بصيرته ، وارتفع عن جاذبية الطين ، وحلّق في أجواء الروح ، وحينئذ يشعر بأن وجود الله يملأ عليه أقطار نفسه ، ويغمر كيانه كله ، فيحس بأنه غير محتاج إلى دليل على وجود ربه - سبحانه - خارج عن ذاته وكيانه هو ، بل يشعر أن وجود الله أظهر من كل شيء ، بل هو دليل كل شيء . ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (1) .

يروون أن أحد العلماء الصالحين الموقنين قيل له يوماً : إن فلاناً من علماء « الكلام » قد أقام على وجود الله ألف دليل . فقال : لأن في نفسه ألف شبهة !!

وهذا جواب مَنْ وضح الأمر في نفسه بحيث لا يحتاج إلى إقامة برهان . على نحو ما قال الشاعر :

وليس يصح في الأذهان شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل !

---

(1) فصلت : ٥٣

وسئل بعض العارفين : بِمَ عرفتَ ربَّك ؟ فأجاب : عرفتُ ربي بربي !

ويقول ابن عطاء الله السكندري في هذا المعنى :

« إلهى : كيف يُستدلّ عليك ، بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المُظهر لك ، متى غِبْتَ حتى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليكَ ؟ ومتى بعدتَ حتى تكون الآثار هى التى تُوصِّل إليك » ؟

هذا ما نقصده بالفطرة : إن الإنسان - سواء أكان جاهلاً أم عالماً - لو جرَّد نفسه من آثار الوراثات المختلفة ، ومحا من ذهنه كل ما يربطه بالمكان الذى يعيش فيه ، والمذهب الذى ينتمى إليه ، ثم تفكَّر بعد ذلك فى الكون وفى نفسه ، لاندفع بفطرته وطبيعته اندفاعاً اضطرارياً ، ليجد نفسه ساجداً خاشعاً أمام ربه العلى العظيم ، الرحمن الرحيم [١] .

---

(١) لعل هذه الفطرة العاقلة أو العقل الفطري ، هى ما يطلق عليه الأستاذ العقاد « الوعى » ، وفي رأيه أن مسألة وجود الله « وعى » قبل كل شىء : فالإنسان له « وعي » يقيني بوجوده الخاص ، وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من « وعى » يقيني بالوجود الأعظم والحقيقة =

إن الذي علّم الإنسان أن ١ + ١ = ٢ بدون برهان ولا مقدمات منطقية هو الذى علّمه أن له إلهاً لا يستغنى عنه ، بدون حاجة إلى استدلال ، ولا انتقال من معلوم إلى مجهول ، ومن مقدمات إلى نتائج .

هذا الشعور الفطري قد يختفي في ساعات العافية والرخاء والغِني الذي يُطغي الإنسان ويحجبه أحياناً عن رؤية نفسه على حقيقتها ، فإذا نزل بالإنسان شدائد قاهرة ، ذاب الطلاء الكاذب الذي غشى الفطرة الأصلية ، ورجع الإنسان إلى ربه ضارعاً داعياً مُنيباً إليه .

سأل رجل الإمام جعفر الصادق عن « اللّه » فقال له : ألم تركب البحر ؟ قال : بلى . قال : فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة ؟ قال : نعم . قال : وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة ؟ قال : نعم . قال : فهل خطر

= الكونية ، لأنه متصل بهذا الوجود بل قائم عليه ، والوعى والعقل لا يتناقضان ، وإن كان الوعي أعم من العقل في إدراكه ، لأنه مستمد من كيان الإنسان كله أو من ظاهره وباطنه ، وما يعيه وما لا يعيه ، ولكنه يقوم به قياماً مجملاً محتاجاً إلي التفصيل والتفسير .

ببالك ، وانقدح في نفسك . أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء ؟ قال : نعم . قال جعفر : فذلك هو « اللّه » .

وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ هُوَ الَّذي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْك وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

والقرآن الكريم يصوِّر أصالة هذه الفكرة ، وشمولها لكل أفراد النوع الإنساني تصويراً بليغاً ، يأخذ بمجامع القلوب ، ويسوقها إلي ربها سوقاً حثيثاً ، ويعرض ذلك في صورة ميثاق قديم بين الانسانية وبين ربها . على أن تؤمن به وتعبده وتوحده . فلنسمع اليه يقول : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ

---

(١) يونس : ٢٢

القِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ ﴾ ؟[١] .

ولما كان هذا الشعور أمراً فطرياً كما تبين لنا ، وجدنا أصل الإيمان قدراً مشتركاً بين جميع الأمم ، وفي مختلف الأقاليم ، وفي شتى عصور التاريخ ، وإن كان الكثيرون قد انحرفوا عن الإيمان الصحيح ، وخلطوه بأوهام وأباطيل كدّرت نقاءه ، وأفسدت جوهره .

يقول الفيلسوف المعروف هنرى برجسون « لقد وجدت وتُوجد جماعة إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكن لم تُوجد قط جماعات بدون ديانة » .

ويقول المؤرخ الإغريقي القديم بلوتارك : « لقد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون ، ومدن بلا مدارس ، ومدن بلا قصور ، ولكن لم توجد مدن بلا معابد » .

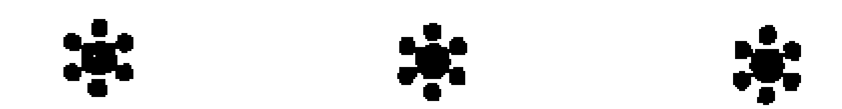
والدارسون لتاريخ الأديان ، يؤكدون أن الإنسان

---

(١) الأعراف : ١٧٢ - ١٧٣

لن يستطيع مهما بلغ من العلم والتمدن أن يستغني عن الإيمان والدين .

يقول الفيلسوف « رينان » في كتابه « تاريخ الأديان » :
« إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين . بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة في الحياة الأرضية » .



دلالة الكون

كما أن الفطرة البشرية السليمة إذا تُركت ونفسها بدون مؤثر ، اهتدت إلى وجود اللّه - سبحانه - فإن العقل السليم - بأدنى تأمل وتفكُّر مُجرَّد عن الهوى والتقليد والعصبية - ينتهي حتماً إلى نتيجة ناصعة هى : وجود اللّه عز وجل .

ومجال التفكر والتأمل للعقل هو هذا الكون الكبير . بسماواته وأرضه ، بإنسانه وحيوانه ، ونباته وجماده ، بكل مافيه من الذَّرة إلى المجرَّة ، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة . والمتأمل في هذا الكون - بما فيه الإنسان - يجد فيه أربعة أدلة رئيسية تهديه إلى ربه الأعلى ، هذه الأدلة هى : الخلق ، والتسوية ، والتقدير ، والهداية .

* * *

• عناية القرآن بالكون :

إن كل شيء في هذا الكون الكبير - إذا تأمله الناس حق التأمل - يأخذ بيدهم إلى الله ، ويدلهم على وجوده ، بل على وحدانيته وتفرده بالملك والتدبير ، كما يدلهم على أسمائه الحُسنى ، وصفاته العليا .

والإنسان نفسه آية فريدة ، دالة على الله ، فهو وحده عالم خاص ، اجتمع له من حسن الصورة ، ومن قوى الإدراك والشعور والبصيرة ما لم يحظ به غيره .

ولهذا يوِّجه القرآن الإنسان إلى النظر والتفكر في نفسه وفيما يحيط به من عوالم ، موقناً أن هذا النظر والتفكر جدير بأن يهديه إلى الحق ، ويسوقه إلى الخير ، بما يرى ويلمس من آيات الله في الأنفس والآفاق .

يقول تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

---

(١) الذاريات : ٢٠ - ٢١ .

﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوات وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ؟[١] .

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوات والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً ﴾ [٢] .

﴿ قُلِ انْظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَوات وَالأَرْضِ ﴾ [٣] .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوات وَالأَرْضِ وَاخْتَلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنَ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [٤] .

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُواْ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [٥] . ويعرض القرآن كثيرا من مظاهر

---

(١) الأعراف : ١٨٥

(٢) الروم : ٨

(٣) يونس : ١٠١

(٤) البقرة : ١٦٤

(٥) سورة ق : ٦ – ٨

الكون في الأرض أو في السماء . ثم يُعقِّب على ذلك بقوله : ﴿ إنَّ في ذَلكَ لآيَةً لقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) أو ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) أو ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٣) .

وينكر القرآن على الكافرين أنهم قد أوصدوا عقولهم ومشاعرهم ، فلا ينتفعون بآيات الله ﴿ وكَأَيِّن منْ آيَةٍ فِي السَّمَوات وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعرِضُونَ ﴾ (٤) ، وكثيراً ما يختم الآيات بمثل هذه الفواصل : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ (٥) ، ﴿ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ﴾ ؟ (٦) ، ﴿ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ ؟ (٧) .

ومما ذكرنا نعرف : لماذا يقسم القرآن كثيراً ببعض خلائق هذا الكون ومظاهره . انه يريد أن ينبِّه عليها القلوب الغافلة، ويَلْفِت إليها العقول المعرضة .. ولهذا أقسم بالليل والنهار ، والفجر والضُّحى ، والشمس والقمر ، والنجم

---

(١) النحل : ١١
(٢) النحل : ١٢
(٣) النحل : ١٣
(٤) يوسف : ١٠٥
(٥) الأنعام : ٣٢
(٦) السجدة : ٢٦
(٧) السجدة : ٢٧

والبحر ، والسماء والأرض ، والشفع والوتر ، وما نُبصر وما لا نُبصر .

* * *

• الأدلة الكونية الأربعة :

والمتأمل في هذا الكون بما فيه الإنسان - يجد فيه أربعة أدلة رئيسية تهديه إلى ربه الأعلى .. هذه الأدلة هي : الخلق .. والتسوية .. والتقدير .. والهداية .

• دليل الخلق :

المراد بالخلق هو الإيجاد والإحداث ، أى إبراز الشىء من العدم إلى الوجود . وذلك مثل : خلق الحياة في الكائنات الحية على ظهر الأرض التي بَثَّ فيها من كل دابة ، وأنبت فيها من كل زوج بهيج . ومثل خلق الانسان العاقل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً ثم كان . وهو ما نبَّه عليه القرآن في أول سورة أُنزلت على رسول الله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [1] . ومثل خلق السموات

---

(١) العلق : ١ - ٢

والأرض وهو أكبر من خلق الناس ، وقد دلّنا علم الفلك الحديث على عِظم الأجرام العلوية ، وسعة المسافات بينها ، حتى إنها لتقاس بملايين السنين الضوئية .

تُرى .. مَنْ خالق الحياة على هذه الأرض ؟ ومَنْ خالق هذا الانسان العاقل المفكر ؟ . ومَنْ خالق هذا الكون كله بأرضه وسمائه ؟ هل وُجِدت الحياة ، ووُجد الإنسان ، ووُجِدت المخلوقات العُلوية والسفلية وحدها بلا مُوجِد ؟ أم لا بد لها من خالق أوجدها ؟ ومَنْ هو ؟

ماذا يقول الملحدون في ظهور الحياة لأول مرة على هذا الكوكب ؟

إن ظهور الحياة - المادة الصمّاء - وضع الماديين أمام مشكلة لم يجدوا لها حلاً ولا تفسيراً إلا على نحو ما قال الشاعر :

وبات يقدح طول الليل فكرته وفسَّر الماء بعد الجهد بالماء

من ذلك ما قاله بعضهم : إن الحياة انتقلت إلى الأرض من العالم العُلوي عن طريق نيزك من النيازك الهائمة في

الفضاء . ولكن السؤال يبقى : ومن خَلَقَ الحياة هناك في عالم الأفلاك ، أو في أى كوكب من الكواكب ؟

وقال بعضهم : إن المادة فيها طبيعة الحياة ، بعد تركيب وتناسق خاص . ولكن السؤال يبقى أيضاً : ومن ركبها ونسّقها وهى مادة عمياء صمّاء ؟

« ولا يسع العقل في أمر ظهور الحياة إلا أن يأخذ بأحد قولين : فإما أنها خاصة من خواص المادة ملازمة لها ، فلا حاجة بها إلى خالق مريد » .

« وإما أنها من صنع خالق مريد يعلم ما أراد » .

«فإذا كان العالم كله مادة ولا شيء غير المادة ، لزم من ذلك أن المادة أزلية أبدية ، لا أول لها ولا آخر ، وأنها موجودة منذ الأزل بكامل قواها ، وجملة خصائصها ، وأن خصائصها ملازمة لها حيث كانت ، بدون تفرقة بين المادة في هذا الكون من الفضاء ، والمادة في غير هذا المكان .

« ولا معنى إذن لظهور الحياة في كوكب دون كوكب ، وفي زمان دون زمان ، ولا معنى لأن تظل خصائص الحياة بلا

عمل ملايين الملايين من السنين ، بل فوق ملايين الملايين من حساب السنين ، ثم تظهر بعد ذلك في زمان يُحسب تاريخه بالآلاف ولا يقاس إلى الأزل الذي لا يدخل في حساب . فلماذا تأجلت خصائص الحياة كل هذا الزمان الذي لا يدخل في حصر ولا إحصاء ؟ ولماذا اختلف التوزيع والتركيب في أجزاء الفضاء وآماد الزمان ؟ ولماذا جاءت هذه الحياة مصادفة ، ثم دامت هذه المصادفة ، بكل ما يلزم لها من تدبير ، وليس للمادة الصمَّاء تدبير » ؟

« على العقل أن يُبدي أسبابه لترجيح القول بهذه الفروض على القول بظهور الحياة من صنع خالق مريد . ولا نعرف أسبابا لترجيح الفرض العسير على الفرض اليسير » .

« والفرض اليسير هو الفرض الآخر ، وهو أن الحياة ظهرت من صنع خالق مريد »[1] .

إن هذا الفرض اليسير هو الذي يحل لغز ظهور الحياة من المادة الصماء ، أو بعبارة أخرى خروج الحي من الميت ،

---

(١) عن كتاب « الله » للأستاذ عباس محمود العقاد .

ويحل لغز الوجوده كله ، حين يستجيب المرء إلى صوت البداهة والعقل ، ويرد الخلق والأمر كله إلى الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (١) .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

هذا الدليل يسمى دليل « الخلق » أو دليل « الإبداع » أو « الاختراع » .

وقد يوجد في صورة أخرى فيسمى دليل « الحركة » سواء أكانت الحركة بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان ، أم الانتقال من حال إلى حال ، أو الحركة بمعنى الانتقال من حيِّز الإمكان إلى حيِّز الوجود .

وفحوى هذا الدليل : أن كل متحرك لا بد له من محرِّك ، وأن هذا المحرِّك لا بد أن يستمد الحركة من غيره . وهكذا إلي أن يقف العقل عند محرِّك أزلي قائم بذاته ، غير محتاج

---

(١) الأنعام : ٩٥ (٢) يس : ٣٦

إلى غيره ، وإلا لزم الدور أو التسلسل إلى ما لا نهاية ، وكلاهما باطل ، وذلك المحرِّك هو الله .

وقد عرضه المتكلمون في صورة ثالثة وسموه دليل «الحدوث» .

قالوا : العالم متغير ، وكل متغير حادث ، وكل حادث لا بد له من محدث . ولا بد أن يقف العقل عند محدث غير حادث ، وإلا لزم الدور أو التسلسل المحالان . وذلك المحدث هو الله . والعلم الحديث يقر بحدوث العالم ، ويرجع حدوثه إلى ملايين يقدِّرها من السنين .

وعرضه الفلاسفة الإسلاميون - كالفارابي وابن سينا - في أسلوب آخر وسمُّوه « دليل الإمكان » .

وفحوى هذا الدليل : أن الموجودات - حسب القسمة العقلية - إما أن تكون واجبة الوجود جميعاً - وواجب الوجود هو الذي لا يتصور العقل عدمه ، لاستلزام المحال - وإما أن تكون ممكنة الوجود على معنى أنها يمكن أن توجد وألا توجد ، فليس هناك علة لذاتها تقتضي وجودها أو عدمه ، وإما أن يكون بعضها واجباً وبعضها ممكناً .

ومحال أن تكون كلها واجبة الوجود ، لأنها بين متحركة تحتاج إلى محرِّك ، وبين مركبة تحتاج إلى علة لتركيبها ، ولا بد أن تسبقها أجزاؤها .

ومحال أن تكون كلها ممكنة الوجود ، لأن الممكن يحتاج إلى علة تخرجه من حيِّز الإمكان إلى حيِّز الفعل .

بقي الفرض الثالث : وهو أن يكون بعضها ممكن الوجود وهو هذا العالم ، وبعضها واجب الوجود وهو الله ، وهو السبب الأول لوجود هذا العالَم . ومن المحال أن يكون مسبوقاً ، لأن الذي يسبقه يكون أولى بالوجوب .

* * *

● **دليل التسوية :**

وإذا كان الخَلق يدل على الله ، فالتسوية أدل عليه ، والتسوية أخص من الخَلق ، إذ من الممكن أن يُخلق الشيء غير مسوى .

فمعنى تسوية الشيء : إحسان خَلقه ، وإكمال صنعته

بحيث يكون مهيَّئاً لأداء وظيفته ، وبلوغ كماله المقدَّر لنوعه ، وإمداده بما به صلاحه وبقاؤه ، وجعله مستوياً معتدلاً ، متناسب الأجزاء بحيث لا يحصل بينها تفاوت يخل بالمقصود منها .

والقرآن يعبِّر عن هذه التسوية بعبارات مختلفة الألفاظ ، متقاربة الدلالة على المقصود ، مثل الإحسان في قوله تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (١) ، والإتقان في قوله : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (٢) ، وإعطاء كل شىء خلقه في قوله تعالى على لسان موسى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (٣) ، ومعنى إعطائه خلقه : إعطاؤه من الخَلق والتصوير مايصلح به لما خُلِقَ له .

كما عبَّر عن هذه التسوية بنفى التفاوت في خَلق اللّه في قوله تعالى : ﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ (٤) .

---

(١) السجدة : ٧ — (٢) النمل : ٨٨

(٣) طه : ٥٠ — (٤) الملك : ٣

وهذه التسوية ظاهرة في الكائنات كلها على وجه العموم ، وفي الكائنات الحية على وجه الخصوص ، وفي الإنسان على وجهأخصّ .

(أ) فالأرض - مثلاً - قد سوّاها صانعها ، بحيث تصلح مهاداً ومستقراً لنوع الإنسان ، فلهذا مدّها وبسطها ، وجعلها ذلولاً ، وألقى فيها رواسي كالأوتاد لها حتى لا تميد ، وباركَ فيها وقدّر فيها أقواتها ، فلو كانت قشرة الأرض كلها صخرية ، أو كلها يابسة ، أو كلها محيطات ، ماصلحت للإنبات وإخراج الثمرات .

ولو كانت قشرة الأرض أسمك مما هى بمقدار بضعة أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين ، ولما أمكن وجود حياة للنبات .

(ب) وكل ما على الأرض من كائنات حية ، قد سُوِّيت خلقته ، وأُحكمت صنعته ، بحيث يؤدي وظيفته في يسر وسهولة .

فالجمل - مثلاً - قد أُعطى الصورة الخَلقية التي تلائم

عيشته وأسفاره الطويلة في الصحراء ، فلهذا خُلق برقبة طويلة ، تُعلي رأسه ، وتنأى بعينيه عن غبار الرمَال ، كما مُنِحَ شفَّة مشقوقة يستطيع أن يتناول بها أشواك البوادي دون أن تؤذيه ، وأُعطي سَناماً يختزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يوماً في الصحاري القاحلة ، ولم تنته رجله بحافر يغوص في الرمال كحوافر الخيل والبغال والحمير ، بل انتهت بخف يقدر به على اجتياز الرمال دون أن يسوخ فيها،ولهذا سمُّوه « سفينة الصحراء » . وهكذا نجد أثر التسوية في كل الأحياء .

فكل حي أُعطي الوسائل التي يحصل بها على غذائه الملائم ، وأُعطي من الأجهزة ما يهضم به هذا الطعام .

فالحيوانات المفترسة أُعطيت من الأنياب والمخالب ما تتمكن به من الافتراس ، كما كُوِّن جهازها الهضمي بحيث يهضم اللَّحم النيىء .

والأنعام التي تأكل العُشب أُعطيت كرشاً كبيراً يُعد بمثابة « مخزن » لما تلتهمه بسرعة ، إلى أن تجتَر وتُعيد مضغه مرة أُخرى .

والطيور أعطيت مناقير تساعدها على إلتقاط غذائها ، واتخذ المنقار صورة من الطول أو القِصَر أو الاستدارة أو غيرها ، مما يناسب نوع الغذاء الذى يلائمه .

كما زُوِدَت الكائنات الحية جميعها بأسلحة مناسبة تدافع بها عن نفسها في صراع البقاء بينها وبين غيرها . فالناب سلاح ، والمخْلب سلاح ، والقرن سلاح ، والسُّم سلاح ، والمِنقار المدبَّب سلاح ، والزعانف الحادة سلاح ، وسرعة العَدو سلاح ، والقدرة على الطيران سلاح ، والقدرة على الاختفاء سلاح ، ولولا هذه الأسلحة التي زُوِدَت بها تلك الأحياء ، لأفني قويّها ضعيفها وأباد كبيرها صغيرها .

(جـ) تسوية الإنسان : وحين ندع الطبيعة وندع الحيوانات وما سُوِيَت له ، ونرتقي إلى الانسان ، نجد مظاهر التسوية وأماراتها أوضح وأعظم ، فقد خُلِقَ الإنسان في أحسن تقويم .

إن الإنسان قد خُلِقَ لمهمة جليلة وهى السيادة على الأرض والخلافة فيها . ولهذا أُعطى من الخصائص والميزات ، والأجهزة المادية والروحية ، ما يُعينه على أداء وظيفته ، وييسر له سبيل مهمته .

ولو نظرنا إلى التكوين البدني للإنسان لرأينا العجب العجاب من عظمة التسوية ، ودقة التصميم ، وتناسق الأجهزة المختلفة التي لا يُعد شيئاً بجانبها تصميم أى جهاز يخترعه إنسان منا ، فتُدهش له العقول ، وتنطلق بمدحه الألسنة والأقلام .

الجهاز العضلى . والجهاز العظمي . والجهاز الهضمي . والجهاز الدموي . والجهاز التنفسي . والجهاز التناسلي . والجهاز اللّمفاوي . والجهاز العصبي . والجهاز البولي . وأجهزة الذَوق والشم والسمع والبصر . كل منها آية من الآيات تسجد لها العقول ، وتخشع لها القلوب .

تقول مجلة العلوم الانجليزية : « إن يد الانسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذّة وإنه من الصعب جداً - بل من المستحيل - أن تُبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف . فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك ، ثم تُثبته في الوضع الملائم للقراءة ، وهذه اليد هى التي تُصحِّح وضعه تلقائياً . وحينما تُقلّب إحدى صفحاته تضع أصبعك تحت الورقة ، وتضغط عليها بالدرجة

التي تقلِّبها بها ، ثم يزول الضغط بقلب الورقة ، واليد تمسك القلم وتكتب به . وتستعمل كافة الآلات التي تلزم الإنسان من ملعقة ، إلى سكين ، إلى آلة الكتابة ، وتفتح النوافذ وتغلقها ، وتحمل كل ما يريده الإنسان . واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة ، وتسع عشرة مجموعة من العضلات ، لكل منها » [١] .

« وإن جزءاً من أُذن الإنسان - الأُذن الوسطى - هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية (قوس) دقيقة معقدة ، متدرجة بنظام بالغ ، في الحجم والشكل ، ويمكن القول بأن هذه الحنيات تشبه آلة موسيقية . ويبدو أنها مُعَدَّة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ بشكل ما ، كل وقع صوت أو ضجة من قصف الرعد إلى حفيف الشجر . فضلاً عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية في الأوركسترا ووحدتها المنسجمة » [٢] .

---

(١) عن كتاب « الله والعلم الحديث » .

(٢) عن كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان » الفصل الثامن « غرائز الحيوانات » .

« ومركز حاسة الإبصار في العين التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء وهي أطراف الأعصاب ، ويقوم بحمايتها الجفن والأهداب الذي يقيها ليلاً ونهاراً والذي تعتبر حركته الإرادية ، الذي يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة ، كما يكسر من حدة الشمس بما تلقي الأهداب على العين من ظلال . وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين ، أما السائل المحيط بالعين والذي يُعرف باسم الدموع فهو أقوى مُطَهِّر »[١] .

« وجهاز الذّوق في الإنسان هو اللّسان ، ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة في حلمات غشائه المخاطي . ولتلك الحلمات أشكال مختلفة ، فمنها الخيطية والفطرية والعدسية ، ويغذى الحلمات فروع من العصب اللّساني البلعومي ، والعصب الذّوقي ، وتتأثر عند الأكل الأعصاب الذّوّاقة ، فينتقل الأثر إلى المخ . وهذا الجهاز موجود في أول الفم ، حتى يمكن للإنسان أن يلفظ ما يحس أنه ضار به ، وبه يحس المرء المرارة والحلاوة والبرودة

---

(١) عن كتاب « الله والعلم الحديث » .

والسخونة والحامض والمالح ، واللأذع ونحوه . ويحتوي اللّسان على تسعة آلاف من نتوءات الذوق الدقيقة يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب . فكم عدد الأعصاب ؟ وما حجمها ؟ . وكيف تعمل منفردة ، وتتجمع بالإحساس عند المخ » ؟ [(١)] .

« ويتكون الجهاز العصبي - الذي يسيطر على الجسم سيطرة تامة - من شعيرات دقيقة تمر في كافة أنحاء الجسم .. وتتصل بغيرها أكبر منها . وهذه بالجهاز المركزي العصبي . فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم ، ولو كان ذلك لتغير بسيط في درجة الحرارة ، بالجو المحيط ، نقلت الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المراكز المنتشرة في الجسم . وهذه توصل الإحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف . وتبلغ سرعة سريان الإشارات والتنبيهات في الأعصاب مائة متر في الثانية » [(٢)] .

« ونحن إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كيماوي ، وإلى الطعام الذي نأكله على أنه مواد غفل ،

(١ ، ٢) المصدر السابق .

فإننا ندرك تَواً أنه عملية عجيبة ، إذ تهضم تقريباً كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها » .

« فأولاً نضع في هذا المعمل أنواعاً من الطعام كمادة غفل دون أي مراعاة للمعمل نفسه ، أو تفكير في كيفية معالجة كيمياء الهضم له . فنحن نأكل شرائح اللّحم والكرنب ، والحِنطة والسمك المقلي . وندفعها بأي قدر من الماء » .

« ومن بين هذا الخليط تختار المعدة تلك الأشياء التي هي ذات فائدة ، وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيماوية دون مراعاة للفضلات ، وتعيد تكوين الباقي إلى بروتينات جديدة تصبح غذاءً لمختلف الخلايا . وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل المواد الأخرى الضرورية ، وتعني بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية ، وبإمكان إنتاج الهرمونات ، وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منظمة ، ومستعدة لمواجهة كل ضرورة وهي تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى للقاء كل حالة طارئة مثل الجوع ، وتفعل ذلك بالرغم من تفكير الإنسان

وتعليله . إننا نصب هذه الأنواع التي لا تحصى من المواد في هذا المعمل الكيماوي ، بصرف النظر كلية تقريباً عما نتناوله . معتمدين على ما نحسبه عملية ذاتية - أوتوماتيكية - لإبقائنا على الحياة . حين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز من جديد ، تقدم باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا ، التي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض ، ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً ، وألا يورد سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعينة ، لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم وشعر وعينين وأسنان ، كما تتلقاها الخلية المختصة ».

« فههنا إذن معمل كيماوي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أى معمل ابتكره ذكاء الإنسان . وههنا نظام للتوريد أعظم من أى نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم ، ويتم كل شيء فيه بمنتهى النظام » [١] .

« ومنذ الطفولة إلى سن الخمسين مثلاً لا يُخطيء هذا

---

(١) المصدر السابق وانظر : العلم يدعو للإيمان » -«فصل أعظم معمل كيماوي في العالم » - يعني المعدة !

المعمل خطأ ذا بال ، مع أن المواد نفسها التي يعالجها يمكن أن تكون بالفعل أكثر من مليون نوع من الجزئيات ، وكثير منها سام » .

يقول الأستاذ « أ . ك . موريسون » : « إن شرح العمل العجيب الذي يقوم به معمل المعدة ، ومثل هذه المجموعة من المعجزات لا يوجد ولا يمكن أن يحدث بأى حال ، في غيبة الحياة . وكل ذلك يتم في نظام كامل ، والنظام مضاد إطلاقاً للمصادفة ، أليس ذلك من صنع الخالق » ؟!

(د) على أن هناك شيئاً هو أجل من كل ما ذكرناه من مظاهر التسوية في خَلق الإنسان ، ذلك هو العقل .

إن الإنسان لم يُمنح قوة عضلية كقوة الثور ، ولا سرعة في العدو كسرعة الحصان ، ولا صبراً على المشقة كصبر الجمل، ولا أجنحة يُحلّق بها كأجنحة الطير ، ولا أنياباً ومخالب كأنياب الأسد ، ولا أعيناً مكروسكوبية (مكبرة) كأعين الحشرات الدقيقة ، ولا بصراً تلسكوبياً (مقرباً مكبراً) كبصر الصقور ، ولا غرائز هادية كغرائز النحل والنمل والحمام الزاجل ونحوها .

ولكن الواقع أن الإنسان أعطى ما هو أعظم مما أعطيته هذه الأمم من الحيوان والطير مجتمعة . أُعطى العقل المفكر وأُعطى الروح المبصر .

لقد استطاع بعقله أن يستأنس الثور والحصان والجمل ، وغيرها من الدواب الضخمة في جثثها ، القوية في بدنها ، وأن يُسَخِّرها في حاجاته ومعيشته .

واستطاع أن يصنع لها عجلة تجرها ، فتضاعف قوتها وسرعتها ، وبهذا أطال الإنسان في سيقانها ، وقوّى من ظهورها .

واستطاع الإنسان بما اخترعه من أجهزة ميكانيكية أن يطوي المسافات الشاسعة في الزمن القليل ، وأن يضرب بين القارات حتى جعل العالم « قريته الكبرى » ، وأن يجعل كل عمله اليدوي إدارة الأجهزة والسيطرة عليها .

استطاع أن يغوص في البحار كالحيتان ، وأن يَحَلِّق في الهواء كالطيور ، بل فاق الحيتان وسبق الطيور .

لقد تَحكَّم الإنسان في قوة الطبيعة ، ونسف الصخور ،

وشق الأنهار ، واستخدم البخار والغاز والكهرباء ، وفَجَّرَ - أخيراً - الذّرة ، وغزا الفضاء الفسيح ، وحاول الصعود إلى الكواكب ، وصنع هذا الشيء العجيب المدهش (الكمبيوتر).

إن الانسان لم يُمنح عيناً مكروسكوبية (مكبرة) كأعين الحشرات الدقيقة ولا بصراً تلسكوبياً (مقرباً مكبراً) كبصر الصقر ، ولكنه استطاع بعقله أن يصنع « ميكروسكوباً » كهربائياً يرى به « بيكتريا » كانت غير مرئية ، بل يرى الكائنات الصغيرة التي تعضها .

واستطاع بتلسكوبه أن يبصر « سديماً » بلغ من الدِّقة والصغر أنه يحتاج إلى مضاعفة قوة أبصاره مليوني مرة ليراه .

ولم يُمنح الإنسان حاسة فائقة للسمع كما أُعطيته الحيوانات التي تسمع أصواتاً خارج دائرة الاهتزازات الخاصة بنا . ولكنه استطاع بفضل وسائله أن يسمع ذبابة تطير على بُعد أميال ، كما لو كانت فوق طبلة أُذنه ، ويستطيع بمثل تلك الأدوات أن يُسجِّل وقع شعاع الشمس .

فهل يكون كل هذا العمل العجيب للعقل الانساني ليس لا نتيجة تفاعل في المادة التي يتكون منها الجسم - وقع بالمصادفة العمياء ؟ .

* * *

• دليل التقدير :

التقدير : هو خلق كل شيء بمقدار وميزان وترتيب وحساب،بحيث يتلاءم مع مكانه وزمانه ، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه والبعيدة عنه ، فلا يعطل وظيفتها ، أو يعوق سيرها لما خُلقت له ، وبحيث يتم بين المخلوقات كلها توازن شامل ، ينتظم به سير الوجود كله .

فإذا كانت التسوية إعطاء كل شيء من الخَلق والتصوير ما يؤدى به وظيفته علي الوجه اللائق به ، فإن التقدير أن يكون بالقَدَر الذي ينفعهفي نفسه ولا يضر غيره ، ولا يصطدم بالمخلوقات الأخري ، وذلك يتم إذا ما وُضِعَ في مكانه الملائم وزمانه المناسب ، وبالكم الذي يصلح ولا يفسد ، وعلى الكيفية التي يتحقق بها التناسق والتوازن بين وحدات الكون وأجزائه .

وهذا التقدير ظاهرة عامة في كل شيء كما نبَّه القرآن على هذه الحقيقة اذ قال : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [1] ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [2] ، ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾ [3] ، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [4] ، ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [5] .

الماء - مثلاً - سوّاه الله بمعني أنه أحسن خَلقه ، وهيأه لأداء وظيفته من السقي والري والتطهير والتنظيف ، ونحو ذلك . ولكن الماء الذي خلقه الله وأسكنه في الأرض خلقه بقَدَر ، وأنزله بقَدَر ، بحيث لا يقل عن حاجة الخلق فيكون الجدب والقحط ، ولا يزيد عنها فيكون الغرق والضرر ، ولا تطغي المحيطات علي اليابسة ، ولا الملح علي العذب ، وإلى هذا يشير القرآن : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ [6] .

---

(١) الرعد : ٨
(٢) الفرقان : ٢
(٣) الطلاق : ٣
(٤) القمر : ٤٩
(٥) الحجر : ٢١
(٦) المؤمنون : ١٨

الشمس : أحسن الله خَلقها لتؤدى وظيفتها في امداد الحياة بالطاقة الضوئية والحرارية ، ولكنه خلقها بحيث تجري إلي غايتها في مدار محدود ، لا تصطدم بكوكب آخر ، ولا تقترب من الأرض قرباً يحرق أحياءها ، ولا تبعد عنها بعداً يحرمها الحرارة اللازمة للحياة فيها . وإلي هذا يشير القرآن : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍ لَهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيم * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ القَدِيم * لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١) وكل إنسان في أي عصر يستطيع بتأمله وإدراكه الفطري أن يشهد - علي قدر حاله - أن كل شيء في الكون قد خُلِقَ بحساب ومقدار ، وجاء العلم الحديث بكشوفه ووسائله ، فأماط اللّثام عن الحكمة البالغة ، والأسرار العجيبة الكامنة وراء ما بين المخلوقات من مقادير وحدود ، وضوابط وموازنات .

إن في الفضاء الفسيح الذي لا نعرف له حدوداً ، ملايين الملايين من النجوم السابحة في أجوازه ، وبعض هذى أكبر

---

(١) يس : ٣٨ - ٤٠ .

من الشمس بآلاف المرات وملايينها ، كالشعرى الذي هو أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونورها ضعف نور الشمس بخمسين مرة ، وسهيل أقوي من الشمس بألفين وخمسمائة مرة .. وهكذا .

ويقول الفلكيون : « إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد علي عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يُري إلا بالمجاهر والأجهزة . وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه . هذه كلها تسبح في الفلك الغامض ، ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يُحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادى ، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة ، وهو احتمال بعيد ، وبعيد جداً إن لم يكن مستحيلاً » .

ومع هذا التباعد بين كل نجم وآخر ، فقد وُضِعَ كل نجم في مكانه بحيث يتسق في آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب، وتؤدى جميعها مهمتها المنوطة بها في بناء الكون وسير حركته .

ولنأخذ الشمس والقمر والأرض وما بينها من علاقات

مثلا لهذا التقدير المحكم الدقيق الذي كان من آثاره ظهور الحياة الإنسانية علي الأرض واستمرارها إلي اليوم .

إن هذه الشمس هي الوحيدة بين آلاف النجوم ، التي تصلح لجعل الحياة علي الأرض ممكنة ، وإن حجمها وكثافتها ودرجة حرارتها وطبيعة أشعتها ودرجة بعدها عنا ، كل ذلك لازم لقيام حياتنا علي كوكبنا الذي هو الأرض .

يقول العلامة (أ . كريسي موريسون) : « تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل ٢٤ ساعة ، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة ، والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة ، ولم لا ؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرات ، ففي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار ، وفي الليل قد يتجمد كل نبت في الأرض » .

« إن الشمس التي هي مصدر كل حياة تبلغ درجة حرارة سطحها ..١٢ درجة فهرنهايت ، وكرتنا الأرضية بعيدة عنها إلي حد يكفي أن تمدنا هذه النار الهائلة بالدفء

الكافي ، لا بأكثر منه ، وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب . وكان تغيرها في خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار الحياة كما عرفناها » .

« ولو أن درجة الحرارة علي الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة فإن كل نبت يموت ، ويموت معه الإنسان حرقاً أو تجميداً » .

« والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل (١٨) ثمانية عشر ميلاً في الثانية ، ولو أن معدل دورانها كان مثلاً (٦) ستة أميال أو أربعين ميلاً في الثانية فإن بعدنا عن الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا » .

« والنجوم - كما نعلم - تختلف في الحجم ، وأحدها يبلغ من الضخامة حداً لو كان هو شمسنا لكان محور الكرة الأرضية داخلاً في سطحه لمسافة ملايين الاميال » .

« والنجوم كذلك تختلف في طراز اشعاعها ، وكثير من أشعتها يُميت كل نوع معروف من أنواع الحياة . وتتراوح

كثافة هذا الإشعاع وحجمه ، بين ما هو أقل من إشعاع شمسنا ، وما هو أكثر منه عشرة آلاف مرة . ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي فقط لكنّا تجمدنا ، ولو أنها زادته بمقدار النصف لأصبحنا رماداً ، من زمن بعيد » .

« ومن ذلك نجد أن شمسنا هي الصالحة لحياتنا من بين ملايين الشموس غير الصالحة لهذه الحياة » .

« ويبعد القمر مسافة . . . ر. ٤٢ ميل ، ويُذكِّر المدُ الذي يحدث مرتين تذكيراً لطيفاً بوجود القمر ، والمدّ الذي يحدث بالمحيط قد يرتفع إلي ستين قدماً في بعض الأماكن، بل إن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج ، مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر . ويبدو لنا كل شيء منتظماً لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التي ترفع مساحة المحيط كلها عدة أقدام،وتحني قشرة الأرض التي تبدو لنا صلبة للغاية » .

« والمريخ له قمر ، قمر صغير لا يبعد عنه سوى ستة آلاف من الأميال ، ولو كان قمرنا يبعد عنا . . . ر. ٥ ميل

مثلاً ، بدلاً من المسافة الشاسعة التي يبعد بها عنا فعلاً ، فإن المدّ كان يبلغ من القوة بحيث إن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت تُغمر مرتين في اليوم بماء متدفق ، يزيح بقوته الجبال نفسها ، وفي هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الاعماق بالسرعة اللأزمة ، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب ، وكان المدّ الذي في الهواء يُحدث أعاصير كل يوم » [١] .

تُري مَن الذي وضع كل هذه المخلوقات في مواضعها الصحيحة ، قَدَّر أحجامها وأشكالها وأبعادها ونسبها وعلاقاتها هذا التقدير المحكم العجيب ؟ هل عند الماديين الجاحدين من جواب يشفي الصدور ؟ كلا .

أما نحن فجوابنا : انه « اللّه » الذي ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [١] ، ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ

---

(١) العلم يدعو إلى الإيمان – الفصل الأول « عالمنا الفذ » .

(٢) الفرقان : ٢

سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَاناً ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ [1] .

الهواء : ولو تركنا الكواكب والنجوم وعلاقتها بالأرض ونظرنا الي الهواء : ذلك الغلاف الغازي الذي يُحيط بهذه الكرة لوجدنا العلم يقول : « إن هذا الهواء المكوّن من الأوكسجين والنتروجين على الأخص - لا يزيد علي جزء من مليون من كتلة الكرة الأرضية . وكان يمكن أن تمتصه الأرض في فترة تكوينها - وفق النظرية السائدة الآن - وكان يمكن أن يكون بنسبة أكبر كثيراً مما هو عليه . وفي كلتا الحالتين لم يكن وجود الإنسان علي ظهر الأرض ممكناً » .

«وسمك الهواء أو كثافته أمر مقصود مقدّر أيضاً ، فلو كان أرق وأرفع كثيراً مما هو الآن ، لكانت بعض الشهب التي تحترق الآن كل يوم بالملايين في الهواء الخارجي تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية . وكان في إمكانها أن

---

(١) الانعام : ٩٦

تشعل كل شيء قابل للاحتراق . أما الانسان فان اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة ، كان يمزقة إرباً إرباً ، من مجرد حرارة مروره .

إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيماوي التي يحتاج إليها الزرع ، والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات ، دون أن تضر بالإنسان إلا إذا عرّض نفسه لها مدة أطول من اللأزم [1] .

وإذا نظرنا إلى الغازات التي نتنسمها فسنجد الأوكسجين هو نسمة الحياة لكل الكائنات الحيوانية فوق الأرض ، ومنها الانسان ، ولا يستطاع الحصول على هذا الغاز إلا من الهواء ، وتحدد نسبة الأوكسجين في الهواء عادة بـ ٢١ ٪ ، ولو زادت هذه النسبة إلي ٥٠ ٪ مثلاً أو أكثر ماذا كان يحدث ؟ . يقول العلم : إن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال ، لدرجة

---

(١) العلم يدعو إلي الإيمان - الفصل الثاني « الهواء المحيط بنا » .

أن أول شرارة من البرق تُصيب شجرة لا بد أن تُلهب الغابة كلها حتي لتكاد تنفجر .

ومن المعلوم أن كل الكائنات الحيوانية تمتص الأوكسجين ، وتلفظ ثاني أوكسيد الكربون ، أما النبات فهو علي العكس . يستعمل ثاني أوكسيد الكربون ويلفظ الأوكسجين . فهناك تبادل مشترك بين الإنسان والحيوان من جانب ، وبين جميع النباتات والغابات من جانب آخر . فما نطرده نحن تنتفع به هي ، وما تطلقه هي نتنسمه نحن ، وبدونه تنتهي حياتنا بعد خمس دقائق .

فلو لم تكن هذه المقايضة قائمة ما استمرت الحياة الي اليوم .

فلو كانت الحياة كلها حيوانية ، لكانت الآن قد استنفدت كل الأوكسجين .

ولو كانت الحياة كلها نباتية ، لكانت قد استهلكت كل ثاني أوكسيد الكربون .

وفي كلتا الحالتين ، قد تنتهي هذه الحياة وتلك . فانه متي

انقلب التوازن تماماً ذوي النبات أو مات الإنسان فيلحق به الآخر وشيكاً [1] .

تُري من الذي قدَّر هذا التناسق ، وأقام هذا التوازن ، ووضع هذا النظام المحكم ؟

فإذا تركنا عالَم الغازات ، ونزلنا إلي عالَم النبات والحشرات ، رأينا مظاهر شتى لهذا التوازن والتقدير . ومن هذه المظاهر ما ذكره العلأمة (أ . كريسي موريسون) في فصل « ضوابط وموازين » من كتابه . قال : « ما أعجب نظام الضوابط والموازنات ، الذي منع أي حيوان - مهما يكن من وحشيته ، أو ضخامته ، أو مكره - من السيطرة علي العالم منذ عصر الحيوانات القشرية المتجمدة » .

« غير أن الإنسان وحده قد قلب هذا التوازن الذي للطبيعة ، بنقله النباتات والحيوانات من مكان إلي آخر ، وسرعان ما لقي جزاءه القاسي علي ذلك ، ماثلاً في تطور آفات الحيوان والحشرات والنبات ، والواقعة الآتية فيها مثل

(١) المصدر نفسه - الفصل الثالث - « الغازات التي نتنفسها » .

بارز علي أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان » .

« فمنذ سنوات عديدة زُرِعَ نوع من الصبّار في أستراليا ، كسياج وقائي ، ولكن هذا الزرع مضي في سبيله حتي غطي مساحة تقرب من مساحة إنجلترا ، وزاحم أهالي المدن والقري ، وأتلف مزارعهم ، وحال دون الزراعة ، ولم يجد الأهالي وسيلة لصده عن الانتشار ، وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع الصامت ، يتقدم في سبيله دون عائق » .

« وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم ، حتي وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا علي ذلك الصبّار ولا تتغذي بغيره ، وهي سريعة الانتشار ، وليس لها عدو يعرفها في استراليا » .

« وما لبث هذه الحشرة حتي تغلّبت علي الصبّار ، ثم تراجعت ، ولم يبق منها سوي بقية قليلة للوقاية ، تكفي لصد الصبّار عن الانتشار إلي الأبد » .

« وهكذا توافرت الضوابط والموازين ، وكانت دائما مجدية » .

« ولماذا لم تسيطر بعوضة « الملاريا » علي العالم الي درجة كان أجدادنا يموتون معها أو يكسبون مناعة منها ؟ . ومثل ذلك يقال عن بعوضة الحمي الصفراء ، التي تقدمت شمالاً في أحد الفصول حتى وصلت إلي نيويورك .. ولماذا لم تتطور ذبابة « تسي تسي » حتى تستطيع أن تعيش في غير مناطقها الحارة ، وتمحو الجنس البشري من الوجود » ؟

« يكفي أن يذكر الإنسان الطاعون والأوبئة والجراثيم الفاتكة التي لم يكن له وقاء منها حتى الأمس القريب . وأن يذكر كذلك ما كان له من جهل تام بقواعد الوقاية الصحية ، ليعلم أن بقاء الجنس البشري - رغم ذلك - يدعو حقاً إلي الدهشة » (١) .

ولو تركنا ذلك كله وذهبنا إلي الجسم الإنساني نتأمل في

---

(١) فصل « ضوابط وموازين » من الكتاب السابق .

أعضائه وأجهزته وخلاياه ، وما بينها من تضامن وتعاون ، ومن تناسق وتوازن ، لأدركنا من دقة التقدير وإحكام التدبير ، ما لا ينقضي منه العجب . وحسبنا أن نعرف من هذه الأجهزة جهاز « الغُدد الصمَّاء » التي عاش الإنسان ألوف السنين وملايينها قبل أن يعرف وظائفها . فقد بيَّن العلم أنها معامل كيماوية صغيرة ، صغيرة في الجسم ، تمده بالتركيبات الكيماوية الضرورية له ضرورة مطلقة ، وتؤثر في وجوه نشاطه ، والتي يبلغ من قوتها أن جزءاً من بليون منها تُحدث آثاراً بعيدة المدي في جسم الإنسان . كما بيَّن العلم أنها مرتبة ، يُنظِّم كل منها غيرها ، ويضبطه ويوازنه ، وأن افراز غدة يكمل إفراز الأخرى .

يقول الأستاذ (أ . ك . موريسون) : « ومن المتفق عليه : أنه اذا اختل توازن هذه الافرازات المعقَّدة تعقيداً مدهشاً ، فإنها تُحدث اختلالاً ذهنياً وجسمانياً بالغ الخطر .

لو عمَّت هذه الكارثة لاندثرت المدنية وانحطت البشرية الي حالة الحيوانات ، هذا إذا بقيت علي قيد الحياة » (١)

---

(١) فصل « ضوابط وموازين » من الكتاب السابق .

تُرى كيف تحقق كل هذا التقدير ، وكيف تم كل هذا التدبير ، اذا لم يكن هناك خالق أعلى يُقَدِّر فيُحسن التقدير، ويُدَبِّر فيُحكم التدبير ؟

* * *

● دليل الهداية :

خلق الأشياء المبثوثة في هذا الكون دليل على اللّه ، وإحسان خلقها وتسويتها لتؤدي ما خُلقت له دليل آخر على اللّه ، وخلق هذه الأشياء المسوَّاة بمقدار وترتيب يُحقِّق التوازن والتناسق بينها وبين غيرها دليل ثالث على اللّه .

وبقى هنا دليل رابع هو دليل « الهداية » . فكما أن كل شيء في الكون قد خُلِق على الصورة التي تناسب وظيفته ، وتعينه على أدائها ، فهو أيضاً قد هُدِيَ إلى ما خُلِقَ لأجله، وألهم غاية وجوده ، ويُسِّر له الطريق ليدرك غاية الكمال الذي يناسبه . وهذه هى الهداية . إنها شيء فوق الخَلْق والتسوية والتقدير ، إنها الإلهام أو التعليم . سمه ماشئت . إنها الهداية التي يتم بها التقدير ، ويكمل الخَلْق والتدبير .

هذه الهداية عامة مبثوثة في كل شيء في الكون ، حي أو جامد ، صامت أو ناطق ، عاقل أو غير عاقل . فليست هي هداية خاصة بالمكلَّفين أو العقلاء ، كما قد يُظن لأول وهلة ، وليست مقصورة على الكائنات المتحركة بالإرادة كالناس والدواب والطيور والحشرات ، وهذا ما ذكره القرآن على لسان موسى حين سأله فرعون : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ؟ [1] - وقد كان يَدَّعى هو أنه الرب الأعلى - فقال موسى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [2] فما من شيء في الوجود إلا أعطى هداه ، كما أعطى خلقه .

(أ) ومن مظاهر هذه الهداية : أن كل حيوان أُعطي من الحواس والأجهزة الخاصة ما يُعينه على معيشته ، وأداء وظيفته المنوطة به . فتجد طائراً كالصقر كأنما أُعطي بصراً تلسكوبياً ، يستطيع أن يشاهد به - وهو مُحَلِّق في الجو - صيده الصغير على الأرض . ولا بد أن للحشرات الدقيقة عيوناً مكروسكوبية لا ندري مبلغها من الإحكام . وتجد

---

(١) طه : ٤٩ (٢) طه : ٥٠ .

حاسة العودة إلى الوطن ضعيفة في الإنسان ، لأنه يُكَمِّل عتادة القليل منها بأدوات الملاحة ونحوها ، أما في طائر كالحمام الزاجل فإنه يقطع آلاف الأميال عائداً إلى وطنه بلا « بوصلة » ولا خارطة ولا دليل ، فاذا التبس عليه الطريق حيناً ، حوَّم برهة ثم يقصد قُدماً إلى موطنه دون أن يضل .

والنحلة تهتدى إلى خليَّتها ، مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب والأشجار كل دليل يُرى .

والطيور تهاجر من قُطر إلى قُطر ، بل من قارة إلى قارة، ثم تعود إلى مقرها الأول دون أن تخطىء .

ومن أعجب ما عُرِف في هجرات الحيوان وهدايتها : هجرة ثعابين الماء ، التي تهاجر - حين يكتمل نموها - من مختلف البرك والأنهار ، وقد تقطع آلاف الأميال في المحيط ، لتقصد كلها إلى الأعماق السحيقة جنوبي برمودا ، وهناك تبيض وتموت ، أما صغارها - تلك التي لا تملك وسيلة لتعرف بها أى شيء سوى أنها في مياة قفرة - فإنها تعود أدراجها وتجد طريقها إلى الشاطىء الذي جاءت منه

أُمهاتها ، ومن ثَمَّ إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة .
ولذا يظل كل جسم من الماء آهلاً بثعابين البحار ، لقد قاومت التيارات القوية ، وثبتت للأمداد والعواصف ، وغالبت الأمواج المتلاطمة على كل شاطىء ، ماضية في طريق ليس لها به أدنى علم من قبل ، حتى تصل إلى مياهها الخاصة بها ، ولم يحدث مرة أن صِيدَ ثعبان إفريقي في مياه آسيوية ، أو أوروبي في مياة أمريكية أو العكس.

إن المجال ذو سعة ، للحديث عن الهداية في عالم الحشرات والطير والدواب حتى إن المرء ليقف متحيراً عن أى شىء منها يتحدث ؟ وما الذي يخصه منها بالحديث دون غيرها ؟

هل نتحدث هنا عن الهداية في مملكة النحل ، وكيف تُصمِّم وتُهندِّس ، وتبني وتُنسِّق ، وكيف توزِّع العمل وتتعاون على الانتاج والحراسة ، مما يعلمه الدارسون ، وما أفاض فيه الكاتبون ؟ وحسبنا إشارة القرآن إلى هذه الهدايـة : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ

الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

أم نتحدث عن الهداية عند النمل : « تلك الحشرة الاجتماعية » التي يُضرب المثل بتعاونها وتضامنها ، والتي يبدو أنها تُطبِّق المبدأ القائل : « أعظم خير لأكبر عدد » أنها تَدَّخِر رزقها في الصيف ، وتحفظه في مخازن التموين في مستعمراتها ، حتى تنتفع به في أيام الشتاء ، حيث يتعذر عليها الكسب والسعي والخروج من البيت . وإذا كان فيما خزنته ما ينبت عمدت إليه ففلقته فلقتين لئلا ينبت ، فإذا كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربع ، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد ، انتظرت به يوماً ذا شمس ، فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها ، ثم أعادته إليها . فمَنْ علَّمها هذا ، وهداها إليه ؟

ومن عجيب أمرها : أنها تدرك بالشم من البعد ما يدرك غيرها بالبصر أو بالسمع ، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع

(١) النحل : ٦٨ - ٦٩

أكل فيه الإنسان ، وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره ، فتحمله ، وإن كان أكبر من وزنها ، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها ، وجاءت معها بطائفة من أصحابها ، فجاءوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضاً ، حتى يتعاونوا علي حمله ونقله . وليس للنمل ملك ولا رئيس كما للنحل إلا أن لها رائداً لا يكذبها ، يطلب الرزق في مظانه ، فإذا وقف عليه أخبر جماعته ، فخرجوا مجتمعين متعاونين كما ذكرنا ، وكل نملة تجتهد في صالح جماعتها ، غير مختلسة لنفسها من الحَب شيئاً .

أم نتحدث عن الهداية عند طير كالحمام ، الذي نرى الذكر والأُنثى فيه يقتسمان أمر الفراخ بالعدل ، فتقع معظم الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى ، ومعظم جلب القوت والرزق (إطعام الفراخ في فمها) على الذكر ، وأنهما ليتعاونان في إطعام فرخهما ، ويتدرجان به من حَب لين رخو مخلوط بلعابهما إلى ما هو أشد منه وأقوى ، حتى إذا علما أنه قد أطاق الالتقاط بنفسه ، منعاه بعض المنع ، ليحتاج إلى اللُقط ويعتاده ، فإذا أدركا أن حوصلته قد

اتسعت وقويت ، وأن قوّته قد تمت ، وأنهما إن فطماه قطماً تاماً قوى على الاستقلال بأمره ، تركاه يسعى ويكد في طلب رزقه وكفاية نفسه بنفسه ، وإذا سألهما الرزق - كما كان من قبل - منعاه وضرباه ، ونُزعت تلك الرحمة العجيبة من قلبيهما ، وبدءا يعملان من جديد لإنجاب آخر .

أم نتحدث عن الهداية عند سائر الحيوانات ، وقد قال ابن القيم [1] : « إن هداية الحيوانات إلى مصالح معاشها كالبحر حدِّث عنه ولا حرج » . وفيها يقول :

« من هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياماً تهرب به من الذّر والنمل ، لأنها تضعه كقطعة من لحم ، فهي تخاف عليه الذّر والنمل ، فلا تزال ترفعه وتضعه ، وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد ؟

ومن عَلَّمَ الأسد إذا مشى وخاف أن يُقتفى أثره ويُطلب عفى على أثر مشيته بذنبه ؟

---

(١) في كتابه « شفعاء العليل - في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » .

ومن عَلَّم الثعلب إذا اشتد به الجوع أن يستلقى على ظهره ، ويحتبس نفسه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ ، فتظن الطير أنه ميت فتقع عليه ، فيثب على من انقضى عمره منها ؟

ومن علّمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف ، فيأخذ منه ، ويضعه على جرحه كالمرهم ؟

ومن علّم الأنثى من الفيل إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه ، لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة ، لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان ، فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق ، فتأتي ماءً وسطاً وتضعه فيه ، يكون كالفراش الليِّن والوطاء الناعم ؟

ومن علّم العصفور إذا سقط فرخها أن تستغيث فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء فيطيرون حول الفرخ ، ويُحرّكونه بأفعالهم ، ويُحدثون له قوة وهمية وحركة حتى يطير معهم ؟

ومن علّم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء

العش ، وأن يُقيما له حروفاً تشبه الحائط ، ثم يُسَخِّناه ويُحدِثا فيه طبيعة أُخرى ثم يُقَلِّبان البيض في الأيام حتى يفرخ ؟

ومن علَّم المرسلة منها - الحمام الزاجل - إذا سافرت ليلاً أن تستدل ببطون الأودية ومجاري المياه والجبال ومهاب الريح ومطلع الشمس ومغربها ، فتستدل بذلك وبغيره إذا ضلَّت ، وإذا عرفت الطريق مرَّت كالريح ؟

ومن علَّم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المُحكمة ، وتجعل في أعلاها خيطاً ثم تتعلق به ، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلَّت إليها فاصطادتها ؟

ومن علَّم الظبي ألا يدخل كُناسه إلا مستدبراً ، ليستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه وخشفه ؟

ومن علَّم السنور اذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمُشير إليها بالعودة ، ثم يشير إليها بالرجوع ، وإنما يريد أن يُدهشها ، فتنزلق فتسقط ؟

ومن علَّم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي ، حيث

يرتفع عن مجرى السيل ، ليسلم من مدق الحافر ، ومجرى الماء ، ويُعمِّقه ، ثم يتخذ في زواياه أبواباً عديدة ، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزاً رقيقاً ، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه ، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت إذا ضل عنه ؟

قال العلامة ابن القيم ، بعد أن أطال في هداية الحيوان :

وهذا باب واسع جداً ، ويكفي فيه قوله سبحانه : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (١) .

ويكفينا هنا أن نسأل الماديين : كيف أُتيح للذّرات التي تتكون منها النحلة أو النملة أو الحمامة أو غيرها أن تهتدي إلى تلك العمليات المعقدّة دون خالق يُرشدها ؟ !

غير أن الذي ينبغي ذكره هنا هو بعض ما أمدّنا به العلم

---

(١) الأنعام : ٣٨

الحديث من معرفة اتسع بها مدلول الهداية لأكثر مما التفت إليه ، وعنى به علماؤنا المتقدمون من هداية الحيوانات إلى مصالحها ومعيشتها ، وما به بقاؤها وتكاثرها - وبهذه السعة في معنى الهداية . استبنا في ضوء العلم سر التعميم المطلق في قوله تعالى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (١) .

(ب) ولن نتحدث هنا عن عجائب الهداية في عالم النبات ، وكيف يمتص كل نوع منه ما يناسبه من عناصر الأرض بنسب محدودة ومقادير معلومة ، رغم اتحاد التربة واختلاط العناصر فيها . فإذا هذا ملح ، وهذا حلو ، وهذا حامض ، وهذا مُزّ ، وهذا مُرّ ، وهذا بين بين . ترى الشجرتين أو الشجرات متجاورة بل متلاصقة ، التراب واحد ، والماء واحد ، والهواء واحد ، والإضاءة واحدة ، والإشراف واحد ، ولكن شجرة منها لا تخطىء يوماً فتأخذ ما ليس من مخصصاتها أو فوق ما ينبغي ، أو دون ما ينبغي . وهى الحقيقة التي سجّلها القرآن المُعجز فقال : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ

(١) طه : ٥٠ .

وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [1] .

(جـ) إنما الذي نتحدث عنه هنا ، ونلفت النظر إليه هو ما اهتدى اليه العلم من تكوين خلايا الحياة في الجسم الحي وعملها وتضامنها ، وكيف تهتدي إلى طريقها وتصيب هدفها ، ولا تخطئه ضمن ملايين الاحتمالات .

ان كل فرد منا أُمة بل أُمم منتظمة من ملايين ، بل بلايين من الخلايا . وكل خلية مواطن صالح يؤدي نصيبه الكامل من الخدمة الخالصة للمجموع في أمانة وذكاء ومهارة .

وكل خلية من خلايا الحياة تحمل في تركيبها من الخصائص ما لا تحمله خلية أخرى في عالم المادة جمعاء . وأول هذه الخصائص قابليتها للتكرار والتنويع وتعويض النقص وحفظ النوع ، وتجديده على النحو الذي ينفرد به كل نوع من الأنواع . فكل خلية من الجسم تعمل ما ينبغي :

---

(١) الرعد : ٤

على النحو الذي ينبغي ، وفي الوقت الذي ينبغي أن تعمل فيه . إن كل خلية تؤدي عملها المنوط بها لصالح بنية الجسم ، في تعاون منقطع النظير مع سائر الخلايا ، التي تُقدَّر بعدد الجنس البشري كله على ظهر الأرض ، كأن كل خلية على علم بالخلايا الأخرى وما تطلبه منها ، ولا تضل واحدة منها طريقها لمرض أو عجز طرأ عليها إلا تكفَّل سائرها بإصلاح خطئها وتقويم ضلالها .

وما ينهدم وما ينحل كل يوم من هذه الخلايا نتيجة الجهد والعمل ، يذهب ويندفع إلى حيث ينبغي أن تندفع الأنقاض والأجزاء المنحلة ، ويتلقى الجسم العوض الذي يعيدها إلى الانتظام من جديد ، عن طريق الغذاء .

وإن العجب ليبلغ منا مداه إذا رجعنا بكل إنسان منا إلى نقطة البداية في تاريخه ، إلى النطفة .. إلى الخلية الأُولى الساذجة ، الخلية الملقَّحة التي لا تكاد ترى بالمجهر ، والتي تحتوي الدفقة الواحدة منها أُلوف الألوف . لننظر ماذا يقول العلم في هذه الخلية الواحدة : كيف تمضي في إنشاء البناء الجسدي للإنسان ؟ وأى هداية منحتها هذه الخلية التي لا

قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة ؟ إنها تبدأ في الحال بمجرد استقرارها في الرحم ، في عملية بحث عن الغذاء ، حيث تزودها الهداية الإلهية بخاصة أكّالة ، تحول بها جدار الرحم حولها إلى بركة من الدم السائل المعد للغذاء الطازج ، وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ في عملية جديدة ، عملية انقسام مستمرة ، تنشأ عنها خلايا ، وتعرف هذه الخلية الساذجة : ماذا هي فاعلة ، ماذا هي تريد . إنها تعرف الهدف وتعرف الطريق . إنها مكلفة أن تخصص كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة لبناء ركن من أركان هـذه « العمارة » الهائلة : عمارة الجسم الإنساني . فهذه المجموعة تنطلق لتنشىء الهيكل العظمي ، وهذه المجموعة تنطلق لتنشىء الجهاز العضلي ، وهذه المجموعة تنطلق لتنشىء الجهاز العصبي ، وهذه المجموعة تنطلق لتنشىء الجهاز اللّمفاوي ، إلى آخر هذه الأركان الأساسية في العمارة الانسانية .

ولكن العمل ليس بمثل هذه البساطة . إن هنالك تخصصاً أدق ، فكل عظم من العظام ، وكل عضلة من العضلات ،

وكل عصب من الأعصاب ، لا يشبه الآخر ، لأن العمارة دقيقة الصنع ، عجيبة التكوين ، متنوعة الوظائف ، ومن ثَمَّ تنتظم كل مجموعة من الخلايا المنطلقة لبناء ركن من العمارة أن تتفرق طوائف متخصصة ، تقوم كل طائفة منها بنوع معين من العمل في الركن المخصَّص لها من العمارة الكبيرة . إن كل خلية صغيرة ، تنطلق وهى تعرف طريقها. تعرف إلى أين هى ذاهبة ، وماذا هو مطلوب منها ، ولا تخطىء واحدة منها طريقها في هذه المتاهة الهائلة ، فالخلايا المكلَّفة بأن تكون العين تعرف أن العين ينبغي أن تكون في الوجه ، ولا يجوز أبداً أن تكون في البطن أو القدم أو الذراع ، مع أن كل موضع من هذه المواضِع ، يمكن أن تنمو فيه عين ، لو أخذت الخلية الأُولى المكلفة بصنع العين ، وزُرعت في أى من هذه المواضع ، لصنعت عيناً هنالك . ولكنها هى بذاتها حين تنطلق ، لا تذهب إلا للمكان المخصص للعين في هذا الجهاز الانساني المعقدً فمن ترى قال لها : ان هذا الجهاز يحتاج إلى عين في هذا المكان دون سواه ؟ ويا ترى من ذا الذي رعاها ووجهها وهداها إلى طريقها في تلك المتاهة التي لا هادي فيها ولا دليل ؟

وكل تلك الخلايا فرادي ومجتمعة ، تعمل في نطاق ترسمه لها مجموعة معينة من الوحدات كامنة فيها ، وهى وحدات الوراثة (الجينات) الحافظة لسجل النوع ولخصائص الأجداد . فخلية العين - وهى تنقسم وتتكاثر لكى تكون العين - تحاول أن تحافظ في أثناء العمل على شكل معين للعين ، وخصائص محدودة ، تجعلها عين إنسان لا عين حيوان آخر ، وإنسان لأجداده شكل معين للعين وخصائص معينة . وأقل انحراف في تصميم هذه العين من ناحية الشكل أو ناحية الخصائص ، يحيد بها عن الخط المرسوم . فمن ذا الذي أودعها هذه القدرة ، وعلّمها ذلك التعليم ؟ وهى الخلية الساذجة التي لا عقل لها ولا إدراك ، ولا إرادة لها ولا قوة ؟ ومن ذا الذي علّمها ما يعجز الإنسان كله عن تصميمه ، لو وُكِّل إليه تصميم عين أو جزء من عين ، بينما خلية واحدة منه أو عدة خلايا ساذجة ، تقوم بهذا العمل العظيم [١] ؟

هل عند الماديين الجاحدين من جواب لهذا السؤال بل هذه الأسئلة ؟ هل عندهم من تفسير لهذه الظواهر ؟

---

(١) انظر : تفسير سورة الطارق من (الظلال) للشهيد سيد قطب .

إنهم لا يجدون جواباً ، ولا يعرفون تفسيراً ، ما داموا يفرون من الجواب الحتمي الذي لا جواب غيره ، والتفسير الضروري الذي لا تفسير سواه : وهو وجود الله .

* * *

• والآن ... ما موقف الماديين ؟ !

والآن بعد هذا العرض والإيضاح ، ما موقف الماديين المنكرين أمام دلالة الكون الصادقة وآياته الناطقة ؟ ما موقفهم أمام البرهان الكوني بشعبه الأربع ؟ أيجحدون الخلق في هذا العالم ؟ أم يجحدون التسوية والإحكام ؟ أم يجحدون التقدير والنظام ؟ أم يجحدون الهداية والإلهام ؟

إنهم إن جحدوا ذلك فقد أنكروا البداهة والحس والمشاهدة ، وأنكروا كل آثار العلم وتجاربه وملاحظاته .

أم تراهم يقرُّون بالخَلق والتسوية والتقدير والهداية ، ثم يقفون عند هذا الحد ؟ فأى منطق إذن يحتكمون إليه ، أو أى علم يستندون إليه ؟

أخلق ولا خالق ، وتسوية ولا مسو ، وتقدير ولا مقدِّر ، وهداية ولا هاد ؟ !! .

أما العقل والعلم والبصيرة والمنطق ، فلا تملك إلا أن تتلو قول الله - جل شأنه : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [1] .

* * *

• زعم المصادفة :

سيقول الماديون المنكرون لوجود الله : إن وجود الخالق الذي يؤمن به المتدينون ، ليس ضرورة عقلية لتفسير ما في الكون من خَلْقٍ وتسوية ، وتقدير ، وهداية . إذ يمكن أن يكون كل هذا العالَم بما فيه من الحياة والعقل ، وما فيه من الإحكام والتناسق والتوازن الذي تحكمه سنن مطردة ، وقوانين في غاية الدِّقة ، إنما وجد بمحض المصادفة والاتفاق والاعتباط . وضربوا لذلك مثلاً : صندوقاً من الحروف الأبجدية يُعاد تنضيده مئات المرات وألوف المرات وملايين المرات ، على امتداد الزمان الذي لا تحصره السنون ولا القرون ، فلا مانع أن تُسفر هذه التنضيدات المتكررة في مرة

---

(1) الأعلى : ١ - ٣

من المرات عن مقالة جيدة أو قصيدة رائعة ، ولا عمل في إتقان حروفها على هذه الصورة لغير المصادفة المحض .

وردنا على هؤلاء :

أولاً : إن القول بالصدفة والاعتباط ينافي البداهة والفطرة التي تؤمن بالسببية إيماناً أولياً لا يحتاج إلى تعلم أو تلقين . إن الذي أودع في ذات الإنسان ذلك الشعور القوي العميق بوجود اللّٰه ، الذي نسميه « الفطرة » أودع كذلك في عقله قانوناً مطرداً ثابتاً يهدي إليه سبحانه وتعالى ، وهو ما يُعرف بقانون « السببية » أو « العِلّية ».

ومعنى هذا القانون : أن العقل البشري - بدون تلقين ولا تعليم - يوقن أن لكل شيء في الوجود سبباً ، وأن لكل معلول علّة ، ولكل فعل فاعلاً ، ولكل أثر مؤثراً ، وأن شيئاً ما لا يصدر عن غير سبب .

حقيقة نلمسها في أنفسنا ، ونشاهدها في أطفالنا ، دون أن نُعلّمهم اياها . ولهذا نرى الطفل كثير التساؤل عن سبب كل شيء من الجزئيات التي حوله ، ومن الأطفال من يرهق

والديه بكثرة الأسئلة عن الأسباب ، وأسباب الأسباب حتى يقف عند سبب مقنع ، كل ذلك لأن العقل الفطري يؤمن بالسببية في حدوث الأشياء ، ولا يؤمن بالوجود المعتبط لهـا ، ولا بأنها تسير بالاحتمالات والصدفة والجزاف .

فإذا أدرك عقل الناشىء الكون كله كوحدة ، وجاوز مرحلة الوقوف عند الجزئيات ، سأل السؤال الأكبر الذي ما خُلِقَ إلا ليسأله ويُجيب عليه وهو : من خَلَق هذا الكون ؟

إن قانون « السببية » المركوز في فطرته هو الذي جعله يسأل هذا السؤال ، ولا يعتقد أن هذا الكون وُجِدَ وحده ، بلا مُوْجِد ، فمَن هو المُوجِد الخالق ؟ إنه بالطبع ليس أنا ولا أنت ولا غيرنا من البشر ، لأننا أنفسنا مخلوقون عاجزون محتاجون إلى خالق غير مخلوق ، قادر غير عاجز ، وذلك هو « اللّه » .

لا يمكن أن يُقال : إن الموجودات كلها ناقصة ، وإن الكمال يتحقق في الكون كله ، لأن هذا كالقول بأن مجموع النقص كمال ، ومجموع المتناهيات شيء ليس له انتهاء ، ومجموع

القصور قدرة لا يعتريها القصور . فإذا كانت الموجودات غير واجبة لذاتها فلا بد لها من سبب يوجبها ، ولا يتوقف وجوده على وجود سبب سواه [1] .

وهذه النتيجة هى التي عبّر عنها الأعرابي قديماً ، ببساطة وسذاجة حين سألوه عن « اللّه » كيف عرفه فقال : البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير ، فكيف بسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج - أفلا يدل ذلك على العلّى الكبير ؟ !!

ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار العرب الذين نزل بلسانهم إلى ما حولهم من مخلوقات ، ليهتدوا بها إلى الإيمان بخالقها الواحد فقال : ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [2] .

إن الإيمان باللّه ضرورة عقلية ، لتفسير خلق هذا العالم ،

---

(١) انظر : اللّه - للعقاد - ص ١٤

(٢) الغاشية : ١٧ - ٢٠ .

وبدون الإيمان يظل هذا السؤال الذي أثاره القرآن حائراً قلقاً بغير جواب : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُواْ السَّمَوات وَالأَرْضَ ﴾ [1] .

وهم - بداهة - لم يُخْلَقوا من غير شيء ، وهم أيضاً لم يَخْلِقوا أنفسهم .. ولم يدع أحد منهم ، ولا ممن قبلهم أو بعدهم أنه خالق السموات والأرض ؟ فمن الخالق إذن ؟

ليس لهذا السؤال إلا جواب واحد ، لا يملك الإنسان إذا تُرِكَ ونفسه إلا أن يُجيب به . ذلك هو ما أجاب به الأعرابي في باديته ، وما أجاب به المشركون أنفسهم : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ؛ [2] ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [3] .

---

(١) الطور : ٣٥ - ٣٦ (٢) العنكبوت : ٦١
(٣) العنكبوت : ٦٣

وهو عين ما يُجيب به أقطاب العلم الحديث اليوم ، يقول أحدهم : « تثبت العلوم بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أبدياً . ولا تقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية ، فقد أثبتت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة منذ ملايين السنين . واليوم لا بد لمن يؤمن بنتائج العلوم أن يؤمن بفكرة الخلق أيضاً . وليس من المعقول أن يكون هناك خلق بدون خالق ، هو اللّه » (١) .

وثانياً : إن العلم الحديث قد أغلق - إلى الأبد - باب القول بأن هذا الكون أو شيئاً فيه قد وُجِدَ بالمصادفة ، فإن العلم الرياضي - الذي هو منظِّم حسابات العلم الحديث - قد بحث موضوع المصادفة على أساس رياضي ، وبيَّن بوضوح : أن احتمال وجود الكون أو شيء فيه بالمصادفة هو « الصفر الرياضي » الذي يعرفه الرياضيون أصغر من أصغر عدد يمكن تصوره أو تحديده .

---

(١) من مقال للعالم الأمريكي « إدوارد لوثر كسبل » في كتاب « اللّه يتجلى في عصر العلم » .

إن المصادفة - وإن كانت تبدو لنا شاردة غير منتظمة فهي تخضع لقوانين صارمة تقيدها تقييداً وثيقاً .

ويضرب لذلك الأستاذ « أ.ك . موريسون » مثلاً يقول [1] : خذ عشرة « بنسات » كلاً منها على حدة ، وضع عليها أرقاماً مسلسلة من (١) إلى (١٠) ثم ضعها في جيبك ، وهزها هزاً شديداً ، ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من (١) إلى (١٠) .

« إن فرصة سحب البنس رقم (١) هي بنسبته إلى (١٠) ، وفرصة سحب رقم (١) ورقم (٢) متتابعين هي بنسبة (١ إلى ١٠٠) وفرصة سحب البنسات التي عليها أرقام (١ ، ٢ ، ٣) متتالية ، هي بنسبة (١ إلى ١٠٠٠) ، وفرصة سحب (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) متتالية هي بنسبة (١ إلى ١٠٠٠٠) ، وهكذا حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من (١ إلى ١٠) هي بنسبة (١ إلى ١٠ ملايين) » .

---

(١) الفصل الأول « عالمنا الفذ » من كتاب « العلم يدعو إلى الإيمان » ص ٤٩ .

« والغرض من هذا المثل البسيط أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة » .

وإذا كانت الأعداد تتكاثر بهذه الصورة ضد المصادفة في أول مرة ، فإنها تتكاثر وتتكاثر بما لايتصور إذا أردنا تكرار التجربة مرات أخرى .

يقول العالم المذكور :

« لنفرض أن معك كيساً يحوى مائة قطعة رخاخ ، ٩٩ منها سوداء ، وواحدة بيضاء ، الآن هز الكيس ، وخذ منه واحدة . إن فرصة سحب القطعة البيضاء هى بنسبة (١ إلى ١٠٠) ، والآن أعد قطع الرخام إلى الكيس ، وابدأ من جديد ، إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة . غير أن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هى بنسبة واحد إلى عشرة آلاف (١٠٠ × ١٠٠) » .

« والآن جرِّب مرة ثالثة : إن فرصة سحب تلك القطعة البيضاء ثلاث مرات متتالية هى بنسبة (١٠٠ × ١٠٠٠٠ر١)

أي واحد في المليون . ثم جرِّب مرة أُخرى أو مرتين تصبح الأرقام فلكية » [١] .

وهذا المثل يدلنا بوضوح على أن ما يحدث بالمصادفة يصعب جداً أن يتكرر ، ويستحيل أن يستمر وقوعه فكل ما نراه من ظواهر طبيعية ، تتجدد باستمرار ، وتتكرر بانتظام ، وتمضي بلا خلل ولا اضطراب يستحيل أن يقع هكذا بالمصادفة العمياء ، وحين تكون الحقائق هكذا ناطقة، وحين تعترف بخواص عقولنا يكون من الخبل والسفة أن نرد الحياة والنظام والتقدير في هذا العالم إلى صدفة موهومة ، ونغفل كل منطق وكل برهان .

ويهذا نعلم أن صندوق الحروف - الذي ضربه بعض الماديين مثلاً لعمل الصدفة - هو وهم من الأوهام ، وهو - بمقتضى المنطق الرياضي المذكور - يستحيل أن يحدث ، ولو فُرِضَ حدوثه فيستحيل أن يتكرر وأن يثبت ، فضلاً عما في هذا المثل نفسه من خلل ينقض دعوى قائليه ، ويستلزم

(١) الفصل السادس عشر « المصادفة » ص ١٩١

فرضاً غير فروض المصادفات ، كما يقول الأستاذ العقاد :

(أ) فقد فاتهم أنهم قدَّموا الفرض بوجود الحروف المتناسبة التي ترتبط بعلاقة اللَّفظ ، وينشأ منها الكلام المفهوم .. فمن أين لهم أن أجزاء المادة المتماسكة ، ترتبط بينها بعلاقة التشاكل أو التشكيل على منوال العلاقة التي بين الحروف الأبجدية ؟ ومن أين للمادة هذا التنويع في الأجزاء ؟ ومن أين لهذا التنويع أن تكون فيه قابلية الاتحاد على وجه مفهوم ؟ .

(ب) وفاتهم كذلك : أنهم قدَّموا الفرض بوجود القوة التي تتولى التنسيق والتنفيذ ، وليس من اللازم عقلاً أن توجد هذه القوة بين الحروف .

(جـ) وفاتهم مع هذا وذاك أنهم فرضوا في هذه القوة الجامعة : أنها تُعيد تنسيق الحروف على كل احتمال ، كأنها تعرف بداءة كيف تكون جميع الاحتمالات .

(د) وفاتهم - عدا ما تقدم - أن الوصول إلى تنضيدة

مفهومة منظومة ، لا يستلزم الوقوف عندها وتماسك الأجزاء عليها .. »[1] .

* * *

• دلالة الأخلاق :

ومن دلائل وجود الله . ما اعتمد عليه الفيلسوف الألماني الكبير « عمانويل كانت » وهو دلالة الوازع الأخلاقي المركوز في النفس الإنسانية .

وجوهر هذا الدليل - بعد تنقيته من الحواشي والزوائد والشوائب : أن الكون بما فيه من خَلْقٍ وتسوية ، وما فيه من تقدير وهداية ، يدلُّ على وجود « الصانع القادر » ولكنه لا يلزم من قدرته وصنعته أنه « الإلٰه » الذي يصدر منه الخير والنِعَم ، وتتجه إليه القلوب بالعبادة والحب والحمد العظيم .

وإنما يثبت وجود هذا « الإلٰه » بدلالة وعلامة في النفس الإنسانية ، لا يتأتي وجودها فيها بغير وجود إلٰه . وتلك

---

(١) من كتاب « الله » للأستاذ العقاد ص ٢١٦

هي دلالة الوازع الأخلاقي أو دلالة الواجب أو دلالة الضمير .

فمن أين استوجب الإنسان أن يدين نفسه بالحق كما نعرفه ، إن لم يكن في الكون قسطاس للحق ، يغرس في نفسه هذا الوجوب ؟ ومن أين تقرَّر في فطرة الإنسان أن الواجب الكريه لديه أولى به من إطاعة الهوى المحبَّب إليه ، وإن لم يطَّلع أحد على دخيلة سره ؟

إن وجود هذا الوازع الأخلاقي في نفس الإنسان دليل على أن هناك غارساً غرسه فيها ليستقيم سير الحياة ، وينتظم أمر الجماعة ، وذلك هو الله مصدر الخير والرحمة والجمال .

ويشير القرآن إلى هذا الدليل فيقول : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (١) وإلهام التقوى للنفس يعني منحها الوازع الخُلقي الذي يقاوم دواعي الشهوة والفجور .

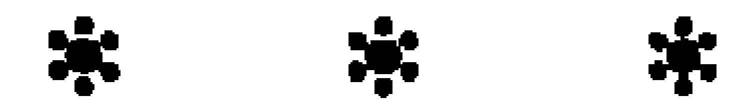
---

(١) الشمس : ٧ - ٨

ويعترض بعض الناس على هذا الدليل بأن وجود الأخلاق أو الضمير أو الشعور بالواجب ، إنما هى « عادة اجتماعية » رسخت في النفس بمضي الزمن ، حتى استحالت إلى رغبة مقبولة أو مطلب محبوب .

وينسى هؤلاء أن « العادة الاجتماعية » ليست بالتفسير الذي يُعلّل نشأة الأخلاق ، وإنما هى تكرير للمشاهدة ، كما رأيناها ، فإذا سألهم سائل : لِمَ نشأت العادة الاجتماعية ؟ قالوا للمصلحة الاجتماعية . ولكنهم لا يسألون أنفسهم : لماذا كانت المصلحة الاجتماعية أمراً مفروغاً منه ، مقضياً بوقوعه [1] ؟

إن ترجيح المصلحة الاجتماعية العامة على المصالح والشهوات الفردية الخاصة ، هو أثر من آثار الوازع أو الضمير الذي أنكروه .



(١) انظر « الله » للعقاد ، ص ٢٣١ - ٢٣٢

• دلالة الوحى :

ومن أدلة وجود اللّه سبحانه : ما جاء به رسل اللّه المتتابعون من عهد نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام ، فكلهم دعوا أقوامهم إلى اللّه وإلى توحيده وحسن الصلة به ، وحذّروهم من الشرك به أو الإعراض عنه .

وقام بينهم وبين أقوامهم صراع عنيف مرير ، ليس لأن هؤلاء الأقوام ينكرون اللّه ، بل لأنهم ينكرون أن هؤلاء بأعيانهم قد خُصُّوا بإرسال اللّه إياهم ، فأيّد اللّه رسله بالآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات التي أثبتت صدقهم وقطعت ألسنة معارضيهم ، فآمن منهم من ينشدون الحق ، وكفر المعاندون والمستكبرون ظلماً وعلواً .

ومن أظهر هذه الآيات : أن هؤلاء الرسل - برغم ضعفهم وقلة أعوانهم وقوة خصومهم وكثرتهم - قد نصرهم اللّه ، وخلّد في الناس ذكرهم ، وأهلك عدوهم ، ومكّن لأتباعهم في الأرض ، وجعلهم أئمة ، وجعلهم الوارثين .

وبقى من آيات الرسل آية لا ينال منها تعاقب الليل والنهار ، ولا تبلى جدتها ، بل تزداد على مر الأعوام والأعصار ، وتلك هى الكتاب المحفوظ الخالد ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه « القرآن الكريم » .
إن هذا الكتاب المعجز ليس آية ودليلاً على نبوة محمد ﷺ فحسب ، بل هو آية ودليل على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى واسع علمه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته . وكلما تقدم العلم ، واتسعت معارف البشر ، اكتشف العالمون في هذا القرآن من الأسرار والكنوز ما يزيل شك الشاكين ، ويزيد الذين آمنوا إيماناً ، وصدق الله العظيم اذ يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ﴾ (١) .

إن الرسالات السماوية آية من آيات وجود الله تعالى ووحدانيته وكماله ، فإن من رحمة الله أنه لم يكتف بما أودعه في الفِطَر والعقول ، وفي الأنفس والآفاق من شواهد تهدى إليه وتدل عليه ، بل أرسل رسله بالبيِّنات ، ليهدوا الناس

---

(١) فصلت : ٥٣

إلى صراط العزيز الحميد . وليس مما يقبله العقل السليم أن يكون هؤلاء الرسل الكرام في مختلف الأُمم ، وشتّى العصور ، قد تواطئوا على أنهم مبعوثون لإله لا وجود له .

ولو فُرِضَ هذا - وفرض المستحيل جائز كما يُقال - فمَن الذي أيدهم ونصرهم وهم الفقراء مالاً ، الضعفاء جاهاً ، القليلون أعواناً ؟ ومَن الذي خرق لهم العادات ، وأمدهم بآيات معجزات ، آخرها وأعظمها وأخلدها هو القرآن العظيم ؟

ومَن الذي أنزل هذا الكتاب ، وأنزل من قبله التوراة والإنجيل ؟ ﴿ قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [1] .

* * *

(١) الأنعام : ٩١

دلالة التاريخ

وفوق دلالة الفطرة ، ودلالة الكون ، ودلالة الأخلاق ، ودلالة الوحي ، هناك دلالة التاريخ .

فالذي يستقرىء التاريخ منذ عرف الانسان تاريخاً – يرى أن الجماعات البشرية في جميع الأقاليم حارة وباردة ، ومن مختلف الأجناس والألوان ، بيضاء وسوداء ، وفي شتَّى المستويات بداة ومتحضرين ، ومن كل الطبقات أغنياء وفقراء ، وفي جميع العصور قديمها ووسيطها وحديثها ، هؤلاء الجماعات المتفرقة عرفوا الإيمان بالله ، على صورة من الصور ، وقد ذكرنا كلمة المؤرخ « بلوتارك » : إنه لم توجد أبداً طوال أزمنة التاريخ مدينة بلا معابد ، وإن وُجِدت مدن بلا قلاع أو حصون ، أو قصور أو غيرها . كما ذكرنا كلمة الفيلسوف الفرنسي « برجسون » : إنه قد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة .

أجل ، لقد اعتقدت كل تلك الجماعات البشرية بوجود إله يستحق العبادة والتعظيم ، وكان لهذه العقيدة أثرها في حياتهم وسلوكهم وأخلاقهم وعلاقاتهم . فهل أجمع النوع الانساني في سائر أجياله على غير حقيقة ؟

إن الذي يحترم نوع الإنسان ، ويحترم نتائج التاريخ ، ويحترم عقله هو ، لا بد أن يُسَلِّم بأن هذا الإجماع التاريخي دليل يؤكد تلك الحقيقة الكبرى ، وهي وجود اللّه سبحانه .

وانحراف بعض الناس أو أكثرهم في تصور الألوهية لا ينفي تلك الحقيقة بل يؤكدها . فإن هؤلاء من فرط شعورهم بالألوهية استكثروا منها ، وخلعوا كثيراً من صفاتها علي المخلوقات التي اعتبروها مظهراً لتجلِّي الإله ، أو رمزاً له ، أو توهموها من نسله أو نحو ذلك من الأوهام ! ولهذا كانت مهمة الأنبياء تقويم هذا الانحراف ، وتصحيح الإيمان ، وتخليصه من شوائب الوثنية وخرافاتها .

ولا عجب أن يحثنا القرآن على السير في الأرض ، والنظر في تاريخ الغابرين ، والاعتبار بمصارع المكذِّبين ،

والتأمل في آثارهم بعقول بصيرة ، وقلوب مفتوحة ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ (١) ، ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٢) . ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٣) .

الحق أن تجارب التاريخ - كتجارب الواقع أيضاً - كلها تنطق وتشهد بأصالة الإيمان بوجود الله تعالى ، وضرورته للإنسان ، فهو ضرورة للفرد ، ليطمئن ويسعد ويزكو ، وهو ضرورة للمجتمع ، ليستقر ويتماسك ويرقى .

يقول الأستاذ العقاد :

« إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لأحد أن يزعم ، أن

---

(١) محمد : ١٠ .

(٢) الأنعام : ١١

(٣) الحج : ٤٦

العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغني عنه ، في علاقته بتلك الجماعة ، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عمن حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس إليه » .

« ويقرر لنا التاريخ : أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل الأُخرى في حركات الأمم ، فإنما تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة » .

« هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ، ولا قوة العرف ، ولا قوة الأخلاق ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه ، على تعدد الأوطان والأقوام » .

« أما الدين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ، وميدانه يتسع لكل ما في الوجود من ظاهر وباطن ،

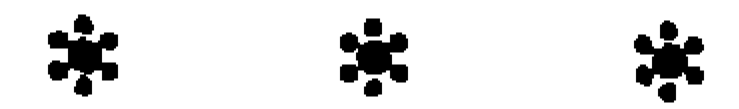
ومن علانية وسر ، ومن ماض أو مصير ، إلى غير نهاية ، بين آزال لا تُحصى في القِدَم ، وآباد لا تُحصى فيما ينكشف عنه عالم الغيوب . وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية في مثلها الأعلى ، وغاياتها القصوى ، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين في جميع العصور » .

« ومن أدلة الواقع على أصالة الدين : أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة ، والجماعة التي لا دين لها أو لا تعتصم من الدين بركن مكين » .

« وكذلك تُلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة ، وفرد معطل الضمير ، مضطرب الشعور يمضي في الحياة بغير محور يلوذ به ، وبغير رجاء يسمو إليه » .

« فهذا الفارق بين الجماعتين ، وبين الفردين ، كالفارق بين شجرة راسخة في منبتها ، وشجرة مجتثة من أُصولها ».

« وقَلَّ أن ترى إنساناً معطل الضمير ، على شيء من القوة والعظمة ، إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم ، اذا حلت العقيدة في وجدانه محل التعطل والحيرة » [1] .



(١) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ص ١٥ - ١٦

الحجب التي تحول بين الناس وبين الله

لعل سائلاً يسأل فيقول :

إذا كانت الدلائل على وجود الله بهذا الوضوح ، وهذه القوة ، وهذه الكثرة ، فما لنا نرى بعض الناس يجحدون بالله ولا يؤمنون به ؟ ويقولون : ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ [1] .

والجواب : إن هناك حُجباً كثيفة تحول بين بعض البشر ، وبين معرفة الله ، والإيمان به . وهذه الحُجب مما كسبت أيدي الناس ، لا من فطرة الله .

١ - الانحصار في دائرة الحس :

وأول هذه الحجب : هو الانحصار في دائرة الماديات والمحسوسات التي يعيش فيها الأطفال ، ولا يعرفون غيرها .

---

(١) الجاثية : ٢٤

فهؤلاء الناس أشبه بالأطفال في عقولهم وتفكيرهم . إنهم يقولون : إذا كان اللّه موجوداً - كما يقول المؤمنون - فلماذا لا نراه بأعيننا ، ولا نُدركه بحواسنا ، كما نرى ونُدرك سائر الموجودات ؟ وهل يسوغ لنا أن نؤمن بما لا نراه ؟

والجواب : أن حصر الموجودات فيما يُرى ويُحس غير صحيح ، فكم من موجودات لا تُحس ولا تُرى ، كما أن حصر وسائل المعرفة في الإدراك الحسي غير صحيح كذلك . فالإنسان يعرف ويدرك عن طريق البداهة والفطرة ، وعن طريق العقل والفكر ، وعن طريق البصيرة والالهام ، كما يعرف ويدرك عن طريق الحس والرؤية .

إن علماء الفلك الآن يُقدرّون وجود كواكب ، بيننا وبينها ملايين السنين الضوئية ، وقدّروا مواقعها والأبعاد بين بعضها وبعض ، لأن وجودها في المواقع التي حدّدوها ، يفسر لهم آثاراً وظواهر معينة ، في حركة الكواكب التي رصدوها ، ويستدلون بما رأوه على ما لم يروه ، ويتبين بالملاحظات العلمية صحة الفرض الذي فرضوه .

فهل يُلام هؤلاء العلماء على إيمانهم بما لم يروه ولم يحسوه مع أنهم اهتدوا إليه بالمنطق الرياضي الذي يعتمد على الأرقام لا على الأوهام ؟

إن هؤلاء العلماء قد اعتمدوا على منطق بسيط ولكنه صادق ، هو الاستدلال بالأثر على المؤثر ، فهم قد عرفوا الكواكب البعيدة بآثارها لا بذواتها ، وعلى هذا النهج نفسه درس العلماء الطبيعيون « الذَّرة » واستخدموا قوانين الكتلة والطاقة مع أنهم لم يروا الذَّرة حتى الآن ، كل ما انتهوا إليه بوسائلهم الألكترونية الجبارة أنهم استطاعوا أن يروا ظلها أو خيالها بعد تكبيره وتضخيمه .

فكيف نَسلِّم بهذا المنطق - منطق الاستدلال بالآثار - ونستخدمه في علوم الطبيعة والفَلك ثم ننكره في معرفة الخالق الأعلى ؟

يقول الدكتور البحّاثة « دى نوى » :

« كثير من الأذكياء وذوي النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله ، لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه ،

على أن الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي ، لا يلزمه أن يتصور « اللّه » إلاَّ كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرب . فإن التصور في كِلا الحالين ناقص وباطل . وليس الكهرب قابلاً للتصور في كيانه المادي . وأنه مع هذا لأثبت في آثاره من قطعة الخشب »[1] .

* * *

٢ - الغفلة :

إن ثاني هذه الحُجب هو الغفلة ، الغفلة التي تغشى بعض الناس ، فتصيب أفكارهم بالشلل وقلوبهم بالعقم ، وتعطل المعرفة والإدراك لديهم ، فكل همهم ملء البطون وإشباع الشهوات والتمتع بما يتمتع به الأنعام ، وهؤلاء هم حطب جهنم ووَقود النار ، وهم الذين قال اللّه عنهم : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا ،

(١) « عقائد المفكرين في القرن العشرين » للعقاد .

أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾ (١) .

وإنما كانوا أضل من الأنعام ، لأن الأنعام لم تُمنح من العقل والمواهب والنِعَم ما مُنِحوا ، كما أن الأنعام تؤدي مهمتها التي خُلقت لها ولا تتمرد عليها : من دَرٍّ ونسل ، أو صوف ولحم ، أو ركوب وحمل . فإذا غفل الإنسان عن ربه الذي خَلَقه لمعرفته وعبادته وخلافته في أرضه - فهو أسوأ منها منزلة وأضل سبيلاً .

* * *

٣ - التقليد :

والحجاب الثالث هو التقليد : الذي يُفقد الإنسان شخصيته ، ويجعله يفكر بعقل غيره ، فإذا نشأ في بيئة كافرة ملحدة ، أو تتلمذ على أناس ملحدين ، سلَّم إليهم زمام نفسه ، وعاش معهم ذيلاً وإمعة ، يؤمن بما آمنوا ، ويكفر بما كفروا ، فمن الناس من يُقلِّد سَلَفه وآباءه ، ومنهم

---

(١) الأعراف : ١٧٩

من يُقلّد كبراءه وزعماءه ، ومنهم من يُقلّد أساتذته ومعلميه، وكل هذه الألوان من التقليد حُجب وسدود ، تحول بين الناس وبين الإيمان بالحق . ولهذا حمل القرآن عليها وعلى أصحابها: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) ويعرض لنا حال الزعماء ومقلديهم يوم القيامة فيقول : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبرأُواْ مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (٢) .

* * *

٤ - المكابرة :

أما رابع هذه الحُجب وهو أكثفها وأغلظها فهو المكابرة

---

(١) البقرة : ١٧٠ - ١٧١ (٢) البقرة : ١٦٦ - ١٦٧

والعناد . إن دلالة الفطرة ، ودلالة الكون ، ودلالة الضمير ، ودلالة الوحي ، ودلالة التاريخ ، كلها وأضعافها وأضعاف أضعافها من الدلائل - لن تقنع أولئك المكابرين الذين يسدُّون آذانهم لئلا يسمعوا صوت الحق ، ويُغشون أعينهم لئلا ترى النور ، ويوصدون قلوبهم كيلا ينفذ إليها شعاع من الهدى . إنهم يجادلون ليشوشوا لا ليفهموا ، وليغلبوا لا ليقنعوا ، إنهم كما وصفهم اللّه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًىً وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [1] .

إن المعاند المتعصب لا يقنعه ألف دليل ودليل ، ولن يهتدي إلى الحق ولو برؤية العين ، ولمس اليد ، وإدراك الحس . وقد طلب المشركون الجاحدون برسالة محمد ﷺ أن يُنَزِّل عليهم كتاباً من السماء يشهد له بالرسالة ، أو يصعدوا هم إلى السماء ليسمعوا شهادة الملأ الأعلى بنبوته ، فردَّ القرآن الكريم على تعنتهم وسخف مقترحاتهم ، وبيَّن دخيلة أنفسهم بقوله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ

---

(1) الحج : ٨ - ٩

فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (١) . وقال في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابَاً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ (٢) .

حتى لمس اليد ، ومشاهدة العين ، يستطيع المتعصب المكابر أن يَماري فيهما ، وأن يتهم يده التي لمست ، وعينه التي أبصرت ، ويدّعي أنه كان مُخدّراً ، أو مسحوراً ، أو ماشاء له عناده وهواه . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ قُلِ انْظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَوات وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

وما أبلغ القرآن وهو يجعل الآيات المبثوثة في النفس والآفاق عبرة لأصحاب العقول والقلوب وحدهم لا لغيرهم : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوات والأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (٤) ، أو ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) الأنعام : ٧

(٢) الحجر : ١٤ - ١٥

(٣) يونس : ١٠١

(٤) آل عمران : ١٩٠.

(٥) النحل : ١٣

أو ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [1] ذلك لأن المعاند المكابر لا يتفكر ولا يعقل ولا يذكر ولا يسمع ، ومن كان هذا حاله فليس يهتدي إذن أبداً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [2] .

إن ألف دليل ودليل لا تكفي لإقناع من « جمَّد » عقله ، وأغلق قلبه ، وأصر على الجحود والإنكار ، وكل شيء في الأرض أو في السماء مقنع لمن يريد أن يقتنع ، وهاد لمن يريد أن يهتدي .

فيا عجبا كيف يُعصي الإله ... أم كيف يجحده الجاحد ؟

ولله في كل تحـــــريكة ... وفي كل تسكينة شاهد

وفي كل شيء له آيـــة ... تـدل على أنه الواحد

* * *

---

(1) يونس : ٦٧ (2) سورة ق : ٢٧

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الحجب التي تحول بين الناس وبين اللّه

(١٠٤ - ١١٢)

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب المصريه : ٥٩٣٧ / ١٩٨٩
الترقيم الدولي : ٠ - ١٩٦ - ٣٠٧ - ٩٧٧

طبع بالمطبعة الفنية ـــ ت : ٣٩١١٨٦٢

كتب للمؤلف

١ ـ الحلال والحرام فى الإسلام

٢ ـ الإيمان والحياة.

٣ ـ الخصائص العامة للإسلام.

٤ ـ العبادة فى الإسلام

٥ ـ ثقافة الداعية

٦ ـ فقه الزكاة (جزءان).

* سلسلة حتمية الحل الإسلامى :ـ

٧ ـ * الحلول المستوردة
وكيف جنت على أمتنا.

٨ ـ * الحل الإسلامى.. فريضة وضرورة.

٩ ـ * بينات الحل الإسلامى..
وشبهات العلمانيين والمتغربين.

١٠ ـ مشكلة الفقر، وكيف عالجها الإسلام.

١١ ـ بيع المرابحة للآمر بالشراء.
كما تجريه المصارف الإسلامية.

١٢ ـ الصبر فى القرآن الكريم.

١٣ ـ غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى.

١٤ ـ التربية الإسلامية، ومدرسة حسن البنا.

١٥ ـ رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد.

١٦ ـ جيل النصر المنشود.

١٧ ـ وجود الله.

١٨ ـ حقيقة التوحيد.

١٩ ـ نساء مؤمنات.

٢٠ ـ ظاهرة الغلو فى التكفير.

٢١ ـ الناس والحق.

٢٢ ـ درس النكبة الثانية.

٢٣ ـ عالم وطاغية.

٢٤ ـ الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد.

٢٥ ـ عوامل السعة والمرونة
فى الشريعة الإسلامية.

٢٦ ـ الوقت فى حياة المسلم.

٢٧ ـ أين الخلل؟

٢٨ ـ الرسول والعلم.

٢٩ ـ نفحات ولفحات «ديوان شعر».

٣٠ ـ الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه.

٣١ ـ فتاوى معاصرة.

٣٢ ـ شريعة الإسلام.

٣٣ ـ الصحوة الإس

٣٤ ـ قضايا معاصـ

٣٥ ـ الاجتهاد فى

٣٦ ـ المنتقى من
(فى جزءين

٣٧ ـ الصحوة الإ
العربى والإ

٣٨ ـ الفتوى بين

٣٩ ـ من أجل صـ

٤٠ ـ الإمام الغزالى بين مادحيه